

ماذا كتب في الزبور؟



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com. Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

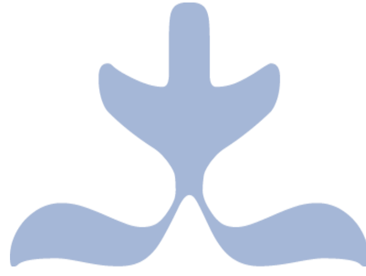
فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:

الفهرس



ماذا كتب في الزبور؟
الجزء الأول



ماذا كتب في الزبور؟ – الجزء الأول

ماذا كُتِب في الزبور؟

"**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**"، أليس كذلك؟ قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

بعد مراجعة كتب التفسير وأقوال السادة العلماء حول مضمون هذه الآية الكريمة نجد لزاماً القول أنهم قد أخفقوا في توصيل المراد للناس، والسبب في رأينا يتمثل في أمرين اثنين:

1. عدم قدرتهم على فهم مفردات القرآن فهماً دقيقاً للخروج باستنباطات صحيحة عن مراد الآيات القرآنية
2. أنّ تفسيراتهم كانت على الدوام مدفوعة بعقائدهم المسبّقة، فهم لا يفسرون آيات الكتاب الكريم كما يجب أن تفسر (بناء على ما يتحمله النص نفسه من معاني)، ولكنهم غالباً ما يفسرونها بناء على عقائد ومعتقدات راسخة لديهم، فعند الحديث عن الآية السابقة نجد أن المفسرين ينطلقون من المبدأ الراسخ لديهم أن هذه الآية تنطبق على أمة محمد، لذا فمهما اختلفت التفسيرات تعود لتتلاقى في النهاية مع النتيجة الحتمية لديهم وهي أنّ الآية تنطبق على أمة محمد، الأمر الذي غالباً – في رأينا- ما غطّى على الحقيقة الصارخة التي تقدمها الآية القرآنية نفسها، وسنحاول الخوض في الآية الكريمة السابقة لإثبات زعمنا هذا.

مما لا شك فيه أن الآية تتحدث عن واحدة من سنن الله الكونية التي لا تبديل لها، فالله قد كتب في الزبور من بعد الذكر ما يلي: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ.

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل قارئ لهذه الآية الكريمة هو: كيف يكون ذلك؟ أي: كيف يرث عباد الله الصالحون الأرض؟ وماذا عن عباد الله غير الصالحين؟ ألا يسكنون الأرض ويرثوها؟ ثم يأتي السؤال الأكبر وهو: كم عدد عباد الله الصالحين المجودون على الأرض مقارنة بعباد الله غير الصالحين؟ ألا يوجد عدد أكبر من الناس الذين يأكلون ويتمتعون (لا بل ويملكون) الأرض وهم (ربما) لا يعبدون الله أصلاً؟ فكيف يمكن تفسير هذه المشاهدات وغيرها في سياق الحديث عن الحقيقة القرآنية التي تقدمها هذه الآية الكريمة؟ أما السؤال الذي سيسبب الحرج لكل علماء المسلمين هو: أين هي أمة محمد (المقصودة في هذا الخطاب حسب رأيهم) التي ترث الأرض؟ (لاحظ أن الحديث عن الأرض أي الحياة الدنيا وليس الحياة الأخرى)

للإجابة على هذه التساؤلات لابد (قبل كل شيء) من وضع كثير من المعتقدات السابقة خلفنا، والخوض في هذه الآية الكريمة غير متسلحين بأفكار مسبّقة تجعل من الصعب اكتشاف الحقيقة، فنحن لن ننطلق إذاً – كما فعل غالبية علماء المسلمين- من الافتراض المبني على الشوفانية الذاتية بأن هذه الآية الكريمة تخصنا نحن المسلمين، لذا سنترك الافتراض العقائدي أننا نحن عباد الله، وأننا نحن الصالحون، وأن ...، وأن ... الخ.

المفارقة الأولى:

إذا صح افتراض غالبية علماء المسلمين أن الآية تخص أمة محمد، فهل كان المسلمون على الدوام هم ورثة الأرض؟

إن المفارقة العجيبة في أقوال علماء المسلمين تكمن في أن المسلمين في فترات التاريخ المتعاقبة لم يكونوا على الدوام ورثة الأرض، ولم يشكّلوا على الدوام الحضارة الأبرز والأقوى التي تهيمن على غيرها من أمم الأرض، فكيف بهم يكونون ورثة الأرض كما تنصّ الآية الكريمة؟

وهنا يأتي دور التأويل: غالباً ما يعزي علماء المسلمين عدم قدرة وراثة المسلمين للأرض إلى المسلمين أنفسهم، ظانين أن هذا القانون الرباني ينطبق عليهم يوم أن يكونوا هم سادة الحضارة، ويتعطل هذا القانون الإلهي إن هم تخلفوا عن ركب الحضارة، وهكذا. وربما يغيب عن بالهم (عن قصد أو عن غير قصد) أنّ هذه الآية الكريمة تقدم واحدة من سنن الله الكونية النافذة على الدوام، التي لا يجوز أن نفهم أنها تتحقق أحياناً وتغيب أحيانا أخرى، فإذا ما كانت الغلبة للمسلمين انبروا ليتغنوا بمضمون هذه الآية (وأظن أنهم قد فعلوا ذلك أيام كانت السطوة لحاكم المسلمين)، وإذا لم تكن الغلبة لهم أغفلوا مضمون هذه السنّة الإلهية (وأظن أنه مما يندر أن تقرأ هذه الآية على منابر الخطباء في هذا الزمن)، وكأنها قد تعطلت لفترة من الزمن، منتظرة حتى يعيد التاريخ دورته من جديد ويتولوا هم زمام ركب الحضارة من جديد.

إن هذه المواقف العقائدية المسبّقة والمتمركزة حول الذات هي ما تغشي الأبصار أن ترى من أكثر من زاوية، وتصمّ الأذان عن سماع ما لا يطربها، وتقفل القلوب عن فهم الحقائق كما هي فعلاً (كما أرادها الله)، وليس كما نحبها ونريدها (نحن المسلمين) أن تكون.

إن فهم مضمون هذه السنّة الإلهية الكونية يتطلب منّا الغوص أولا (وقبل كل شيء) في مفردات الآية نفسها، الأمر الذي - إن تحصّل لنا (بحول الله وتوفيقه)- سيمكّننا من الخروج باستنتاجات عقائدية جديدة (ربما تكون أكثر وجاهة مما سلف)، وليس بآراء فردية أو جماعية أو طائفية أو ...، الخ.

وهنا لا بد من التعرض لكل مفردة من مفردات الآية الكريمة نفسها، ونعيدها هنا لنتأمل مفرداتها الواحدة تلو الأخرى:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

والمفردات هي إذاً على النحو التالي:

- وَلَقَدۡ
- كَتَبۡنَا
- فِي
- ٱلزَّبُورِ
- مِنۢ بَعۡدِ
- ٱلذِّكۡرِ
- أَنَّ

- ٱلۡأَرۡضَ
- يَرِثُهَا
- عِبَادِيَ
- ٱلصَّٰلِحُونَ

إنّ الفهم الدقيق والصحيح لكل واحدة من هذه المفردات (كما ترد في السياقات القرآنية وليس كما يقدمها أهل الشريعة أو أهل اللغة أو أهل ...) هي الركيزة الأولى للوصول إلى الاستنباطات السليمة، ولنبدأ بالمفردة الأولى وهو كلمة "ولقد"

وَلَقَدْ

غالباً ما أصر أهل اللغة على مواقفهم اللغوية التي إنْ صحت تتطلب مراجعات عقائدية ليستقيم الأمر اللغوي مع الموقف العقائدي، وكلمة "قد" هي – في ظننا- واحدة من هذه الأمثلة التي تبين مثل ذاك التنافر الظاهر بين الرأي اللغوي من جهة والموقف العقائدي من جهة أخرى، فأهل اللغة يظنون أن كلمة "قد" تفيد التوكيد إذا دخلت على الفعل الماضي بينما تفيد التشكيك إذا دخلت على الفعل المضارع (فهذا على الأقل ما نشأت عليه أنا من فهم منذ الصف السابع ج)، فالفرق لديهم بين قولنا "قد زرته" مثلاً و قولنا "قد أزوره" هو أنّ فعل الزيارة قد تأكد في حالة الماضي وذلك لورود كلمة "***قد***" مصاحبة للفعل الماضي (زرته)، أما في حالة الفعل المضارع ففعل الزيارة غير مؤكد وذلك بسبب ورود كلمة **قد** مصاحبة للفعل (أزوره)، والأمثلة وافرة في اللغة على مثل هذا الظن لمعنى "قد" في العربية.

السؤال: كيف يمكن التوفيق بين هذا الفهم اللغوي والموقف العقائدي الذي يمكن أن ينتج عنه في السياقات القرآنية التالية؟

- ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]
- ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]
- ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور: 63-64]
- ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ [الأحزاب: 18]

راقب – عزيزي القارئ- التلازم الحاصل بين "قد" والفعل المضارع في جميع السياقات القرآنية السابقة، فهل هذا يعني أن الرؤية غير مؤكدة في قوله تعالى "**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**" أو أن العلم غير مؤكد في قوله تعالى "**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ**" أو في قوله "**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا**" أو في قوله "**قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**" أو في قوله تعالى "**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ**"؟

إن المخرج من هذا مثل "المأزق" يتمثل – في رأينا- بواحدة من سيناريوهين اثنين وهما:

1. إما أن تكون تصوراتنا اللغوية خاطئة وتحتاج حينئذ للتصحيح والمراجعة، كأن نراجع استنباطاتنا القواعدية بناء على مثل هذه النصوص القرآنية، ونتخلى عن تلك التصورات اللغوية السائدة، فنتخلى عن القول بأن "قد" – مثلاً- تفيد التشكيك مع الفعل المضارع، بدليل مثل هذه السياقات القرآنية التي ذكرناها سابقاً.
2. أو أن نلتزم بتلك الأفهام اللغوية، ونطبقها على النصوص القرآنية بغض النظر عن ما ستؤول إليه الأمور، وبغض النظر عن الاستنباطات العقائدية التي ستبنى على مثل هذه الأفهام، كأن نلتزم بأن "قد" – مثلاً- تفيد التشكيك إذا التصقت بالفعل المضارع، وعندها يجب أن تكون لدينا الجرأة الكافية في أن نقول أن فعل الرؤيا في قوله تعالى "**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**" غير يقيني، أو أن علم الله غير مؤكد في قوله تعالى "**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ**" أو في قوله "**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا**" أو في قوله "**قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**" أو في قوله تعالى "**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ**"

(لمعرفة موقفنا في هذه القضية المحورية ندعو القارئ إلى مراجعة سلسلة مقالاتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟)

مثال

ولا يظنن أحد بأن هذه أمور قليلة الحدوث أو غير جدّية في عواقبها، فالأمر سيترتب عليه اختلافات وتحولات عقائدية كبيرة جداً، وسنحاول تقديم بعض الأمثلة على ذلك. فلو سألنا أحداً سؤالاً بسيطاً عن الآية القرآنية الكريمة التالية:

- ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾

[التوبة: 3]

لماذا جاءت مفردات " وَرَسُولُهُ" في هذه الآية الكريمة مرفوعة وليست مجرورة أو منصوبة؟

لانبرى علماء الإسلام بتبريراتهم اللغوية لإثبات أن الحركة الإعرابية (وهي حركة الرفع) ضرورة لابد منها، حتى يستقيم المعنى (والقارئ مدعو لمراجعة أقوال العلماء حول مثل هذه القضايا)، ولكن ما يهمنا هنا هو طرح السؤال نفسه: هل هذا ما تفعلونه في كل المواقع الأخرى من كتاب الله؟

إن كان كذلك، فما رأيكم بأن نجري مقارنة بين سياقين قرآنيين مستخدمين نفس التبرير اللغوي الذي يقدمه علماء المسلمين؟

السياق الأول: من الذي يُؤتي؟

قال تعالى في السياق التالي:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى

ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ [التوبة: 59]

هل يؤتي الرسول الناس من فضله (أو من فضل ربه)؟ أي، هل يقوم الرسول بفعل (سَيُؤۡتِينَا)؟

الجواب: نعم، ولكن لماذا؟

الآن لنراقب الحركة الإعرابية لمفردة "وَرَسُولُهُ" التي وردت في هذه الآية الكريمة مرتين، لنسأل: ما هي الحركة الإعرابية الظاهرة على الكلمة؟

الجواب: حركة الضم (الرفع)، وسيكون رد علمائنا الأجلاء يتمثل بالقول بأن الواو في كلمة وَرَسُولُهُ هي واو العطف، فكلمة رسوله معطوفة على كلمة " اللَّهُ" المرفوعة أصلاً بالضم، وذلك ليستقيم المعنى بأن الله سيؤتي هؤلاء الناس من فضله وكذلك سيفعل نبيه (سيؤتي هؤلاء الناس من فضله أو من فضل ربه)، ففعل الإيتاء (آتَاهُمُ، سَيُؤۡتِينَا) سيشترك فيه الله ورسوله: فالله يؤتي من فضله والرسول يؤتي من فضله (أو على الأقل الرسول يؤتي هؤلاء الناس من فضل الله)، فالفضل كله لله ولكن القيام بالإيتاء (آتَاهُمُ، سَيُؤۡتِينَا) سيكون من الله أولاً ومن رسوله من بعده. كلام بسيط وسهل ومفهوم ونقبله بلا تحفظ، أليس كذلك؟

السياق الثاني: من الذي يُغني؟

والآن لنطبق المنطق اللغوي السابق نفسه على الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٧٤﴾ [التوبة: 74]

راقب – عزيزي القارئ- الحركة الإعرابية الظاهرة على كلمة " وَرَسُولُهُ"، أليست هي حركة الضم كما في الآية السابقة؟ أليست كلمة وَرَسُولُهُ معطوفة على كلمة اللَّهُ (اللَّهُ وَرَسُولُهُ) كما في الآية السابقة؟ إذن، لنطبق المنطق السابق نفسه، ونرى الفهم الذي سنخلص إليه. ألا يدلنا ذلك على أن فعل الغنى (أَغۡنَاهُمُ) كما كان فعل الإيتاء (آتَاهُمُ في الآية السابقة) _يأتي من مصدرين: "من الله" ومن رسوله؟

السؤال: هل الرسول يغني الناس؟ هل الرسول هو من يقوم بهذا الفعل؟ من يدري!!!

لقد درج الفكر الإسلامي على القول أن الغنى مصدره من الله وحده، فليس لمخلوق كائن من كان (حتى لو كان نبياً مرسلا) أن يكون هو من يقوم بهذا الفعل. فإن كان هذا هو الموقف العقائدي، فكيف نستطيع التوفيق بين مثل هذا الموقف العقائدي وبين ما خرجنا به من استنباطات بناء على فهمنا اللغوي للآية الكريمة؟ فهل سترشدنا الحركة الإعرابية إلى فهم النص القرآني فهماً لا يسبب حرجاً عقائدياً)

(سنتعرض في مقالة لاحقة بحول الله إلى مثل هذه الإشكالات التي يسببها الفهم اللغوي للنصوص القرآني)

إن ما يؤسف له – في رأينا- هو أن علماءنا الأجلاء غالباً ما يلتزموا بأفهامهم اللغوية (ولا ضير في ذلك)، ولكن عندما يتعرضون لمثل السياقات القرآنية السابقة (هذا من كان لديه منهم الجرأة أن يتعرض لها ولم يحاول التستر عليها بداع عدم إثارة الشبهات كما يفعل رشيد الجراح على الدوام) فقد كان موقفه يتلخص بأن هذا الفهم اللغوي لا ينطبق في الحالة الإلهية، فيبدءون بتسويق بضاعتهم بليّ أعناق النصوص لتتوافق مع تصوراتهم، ويكأنهم يقولون بأن "قد" – مثلاً- تفيد التشكيك في كل الحالات وتحت جميع الظروف إلا إذا كان الفعل المضارع يخص فعل متعلق بالذات الإلهية (فـ يا سبحان الله! معظم أفهامهم

اللغوية تنطبق في حالة الذات الإلهية كما تنطبق في الحالات الأخرى إلا هنا وهناك، والسبب.. لله في خلقه شؤون ...!!).

إننا نرفض مثل هذا الموقف جملةً وتفصيلاً، لأننا نعلم أن الله الذي يسَّر هذا القرآن باللسان العربي - لا شك - يعرف خصائص وميزات (ولنقل تجاوزاً قواعد) هذا اللسان، فالإله الذي يعلم أن "قد" باللسان العربي تفيد التشكيك لا يمكن أن يستخدمها للحديث عن نفسه إن لم يكن هناك تشكيك سيحصل في المعنى المراد توصيله للمخاطب (وهم أهل هذا اللسان أولاً وبقية العالمين من بعدهم). وربما من المهم أن نذكر هنا أن القرآن الكريم مليء بالاستخدامات التي لا تتوافق مع قواعد هذا اللسان التي اختطها النحويون وأهل اللغة والكلام (وسنتعرض لتأويلات هذه الاستخدامات في مقالة منفصلة بحول الله وتوفيقه).

عودة على بدء

يكفي أن نذكر هنا أن "قد" قد صاحبت الفعل الماضي في الآية الكريمة التي نحن بصدد تبيان بعض جوانبها:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

لذا، فالأمر لا يحتمل التشكيك إطلاقاً، بل هو توكيد لحصول فعل الكتابة في الزبور لتلك السنة الإلهية وهي "**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**"، والملفت للانتباه أن "قد" جاءت على صيغت "ولقد" (أي مسبوقة بـ لام التوكيد كما يحب أن يسميها كثير من النحويين)، ولو استعرضنا السياقات القرآنية التي ترد فيها هذه المفردة لوجدنا أنها كانت مصاحبة الفعل الماضي على الدوام، وأن الأحداث التي جاءت معها مفردة "**ولقد**" هي أحداث قطعية الحصول، أي لا يمكن التشكك أو التشكيك بأنها قد حدثت فعلاً، فمن يجادل مثلاً أن الحدث التالي لم يحصل فعلاً؟

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: 65]

وهل هناك شيء من الشك في أن الحدث التالي قد حصل فعلاً؟

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

والأمثلة وافرة جداً في كتاب الله على مثل هذا الاستخدام، لنخلص من كلامنا هذا إلى نتيجة بسيطة جداً مفادها أن ورود مفردة "ولقد" في هذا السياق القرآني تفيد عدم وجود أي شك في أن الحدث المنصوص عليه في الآية الكريمة قطعي الحدوث.

وبالعودة إلى الآية الكريمة قيد البحث والدراسة فيمكننا أن نقول أن الله لا شك قد كتب في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباده الصالحون. إن ما يهمّنا من هذا الاستنتاج هو أن لا ننكص بعد هذا الفهم على عقبنا لنزعم القول بأن مضمون هذه الآية الكريمة قد يتحقق أحيانا ولا يتحقق أحيانا أخرى، وبكلمات أكثر دقة، يجب أن لا نفعل كما فعل معظم علماء المسلمين وهو إثارة فحوى هذه الآية الكريمة إن كانت الغلبة لهم، والتستر عليها ومحاولة الالتفاف عليها إن لم تكن الغلبة لهم، ففي القرن العشرين –

مثلاً- لم يكن للمسلمين سيطرة حتى على بلادهم، فقد كانوا مستعمَرين محتلين، حتى ضاعت أجزاء كبيرة منها، وكان احتلال فلسطين (كما كان ضياع الأندلس وجنوب السودان و ...) وصمة عار على جبين المسلمين جميعاً (وعلى رأسهم حكامهم وعلماء السلاطين) حتى يومنا هذا، فكيف بعد كل هذا الهوان الذي تعرض له المسلمون نعود لنقول أن الآية الكريمة تنطبق علينا (إلا أن يتم تعطيلها لهذه الفترة التاريخية لتعود إلى التطبيق يوم أن تتحسن أحوال المسلمين ويصبحوا هم أهل الحضارة والعمارة، ليكونوا هم الوارثون للأرض)؟

النتيجة رقم 1: الآية الكريمة قطعية الدلالة بأن مضمونها (وراثة الأرض) لا شك حاصل في كل الظروف والأحوال بغض النظر عن حال الأمة، وتأتي القطعية من النص بوجود مفردة "وَلَقَدْ".

كَتَبْنَا

ننتقل الآن لنتحدث عن المفردة الثانية في الآية الكريمة نفسها وهي كلمة " كَتَبْنَا"، لنطرح سؤالين اثنين وهما:

1. ما هي الكتابة أو المكاتبة أو الاكتتاب الذي يتضمنه الفعل " كَتَبْنَا" في الآية الكريمة؟
2. ومن هم الذين كتبوا في ضمير الجمع المتصل بالفعل كَتَبْ**نَا** نفسه؟

أما ما يخص السؤال الأول فإننا نظن أن الفعل "كتب" يعني التدوين، وهذا واضح تماماً في سياق الحديث عن كتابة "تسجيل" الدّين على سبيل المثال:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

وجاء اتهام الكافرين لما جاء به النبي من هذا القبيل :

- ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: 5]

فقد كان زعمهم يتمثل في أنّ النبي هو من يقوم بفعل الكتابة لما يقدم لهم ما ينزل عليه من ربه .
وقد جاء تفنيد زعم الكافرين هذا من الله واضح بأن الله لم ينزّل على محمد شيئاً مكتوباً:

- ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]
- ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: 48]

لذا فالقرآن الكريم لم ينزل مكتوباً ولم يخطه محمد بيمينه، وهذا دليل واضح أن ما نمسكه بأيدينا اليوم ليس قرآنا (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالاتنا تحت عنوان هل للغة العربية قدسية خاصة؟ جدلية الكتاب والقرآن.).

وقفة قصيرة

يجدر التنبيه هنا إلى التفرق بين الكتابة من جهة (**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**) والخط باليمين من جهة أخرى (**وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**)، فالكتابة تعني تسجيل الشيء أو تدوينه سواء كنت أنت من قمت بفعل الكتابة أو قام به آخرون نيابة عنك، المهم في الأمر هو حدوث الفعل، ولكن الخط باليمين يعني أن تقوم أنت بفعل ذلك بنفسك.

لذا عندما زعم الكفار ما جاء في قوله تعالى "**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**"، فإن ذلك قد لا يعني أنهم يقصدون أن النبي هو من قام بفعل الكتابة نفسه (فربما يكون – في نظرهم- قد أوكل تلك المهمة إلى أخريين للقيام بالفعل نيابة عنه)، لكن التفنيد الرباني لزعمهم – في رأينا- جاء بطريقة مفحمة لهم على نحو: **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**، لينفي عن النبي أن يكون هو ما قام بتدوين ذلك بنفسه (**وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**)، كما نفى عنه أنه قد كتبها، أي ربما طلب من غيره كتابتها (**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**).
فالتفنيد الرباني لزعمهم جاء على نحو: أن النبي (1) لم يكن يكتب و (2) لم يكن يخط بيمينه.

نتيجة مفتراة 1: لا يعني أن يكون من كتب بفعل الكتابة قد خط بيمينه ولكن الفعل يحمل في ثناياه أن يكون قد طلب من غيره القيام بالفعل نيابة عنه.

وفعل الكتابة قد ينفّذ بأكثر من طريقة، فقد كُتِب لموسى في الألواح:

- ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

وقد يحصل فعل الكتابة في القلوب:

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: 22]

وهنا لابد من إثارة التساؤل التالي: من الذي يقوم بفعل الكتابة؟

مما لا شك فيه أن الفكر الإسلامي يروج دائماً لفكرة أنّ الملائكة تقوم بكتابة "تسجل" أعمال العباد، لذا فهم يكتبون:

- ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: 21]
- ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: 19]
- ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: 80]

ولكن المدقق في النصوص القرآنية جيداً يجد أن الله نفسه يكتب:

- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

(وسنتعرض لاحقاً للحديث عن الفرق بين ما تكتب الملائكة وما يكتب الله، لنجيب على تساؤل واحد وهو: لم يكتب الله بنفسه؟ أليست الملائكة هي الموكلة بأمر الكتابة؟ والقارئ مدعو لمقارنة قوله تعالى: إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ مع قوله تعالى: وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ، بعد قراءة سلسلة مقالاتنا السابقة تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟ جدلية القلب والعقل)

ويبقى السؤال الأكثر إثارة هو: ما الحاجة للكتابة (التدوين)؟ هل الله بحاجة أن يكتب؟ فهل الله يغفل أو ينسى ليضطر للكتابة (التدوين)؟

كلا، إننا نظن أن الكتابة هي العقد القانوني الذي لا يمكن لطرفي العقد إلاّ الالتزام به، ومخالفته تعني تحمّل المُخالِف للعواقب القانونية المترتبة على المخالفة، فعند استعراض بعض السياقات القرآنية التي تتحدث عن الكتابة نجد أنها تتحدث بمجملها عن قوانين (سارية) المفعول لا يمكن إبطالها:

- ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: 178]
- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: 180]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: 183]

فالمدقق بهذه السياقات القرآنية يجد أنها قوانين (سنن) إلهية سارية المفعول في كل زمان ومكان، فقانون النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص هو القانون الإلهي الذي يجب التمسك به لأنّه مكتوب، وستكون النتيجة على نحو أن الذي لا يلتزم بهذا القانون هو - دون أدنى شك- من الظالمين، (للتعرف على معنى الظالمين انظر مقالتنا تحت عنوان أين كانت جنة آدم؟)

استراحة قصيرة

ربما هذا هو السبب – في رأينا- الذي من أجله طلب الله منا مكاتبة "ما ملكت الأيمان"، فالدخول بما ملكت أيماننا من نساء أهل الكتاب تتطلب المكاتبة (أي إبرام العقد القانوني)، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: 33]

فهناك فرق واضح بين الدخول بما ملكت اليمين من فتيات أهل الكتاب كما نصت الآية السابقة، والدخول بما ملكت اليمين من النساء المؤمنات كما تنص الآية التالية:

- ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء: 25]

فالمدقّق بالنصّين القرآنيين يجد أنّ الدخول بما ملكت اليمين من فتيات أهل الكتاب تتطلب المكاتبة:

﴿...وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ ...﴾

ولكن الدخول بما ملكت اليمين من الفتيات المؤمنات لا تتطلب مثل هذا الشرط، لأن الدخول بهن يقع في باب النكاح، لذا فهو يتطلب (بدلاً من المكاتبة) أخذ الأذن من أهلها:

﴿...فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ...﴾

(للتفصيل في هذا الموضوع نرجو قراءة مقالتنا تحت عنوان زواج المتعة)

ولو تأملنا النص القرآني أكثر لوجدنا أن الشرط اللازم توافره في المدخول بها من فتيات أهل الكتاب

هو الخير فقط:

- ﴿...وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا... ﴾

بينما الإيمان هو الشرط اللازم للنكاح، فلا يمكن أن تنكح إلا المؤمنة:

- ﴿...فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ... ﴾ [النساء: 25]

(للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان زواج المتعة)

ولو تأملنا أكثر في الفروق بين الدخول بما ملكت اليمين من الفتيات المؤمنات من جهة والدخول بما ملكت اليمين من فتيات أهل الكتاب من الجهة المقابلة لوجدنا أن الرجل الذي يدخل بما ملكت يمينه من أهل الكتاب يدفع لها من مال الله مصداقاً لقوله تعالى:

- وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ

بينما يقوم الرجل الداخل بما ملكت يمينه من الفتيات المؤمنات بدفع الأجر بالضبط كما في حالة نكاح المحصنات المؤمنات:

- وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

تلخيص: فالخير هو فقط ما يُبْحَثُ عنه في ما ملكت الإيمان من أهل الكتاب "**فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**" بينما الإيمان هو الشرط الواجب توافره في حالة ما ملكت أيمانكم من المؤمنات "**فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ**" لان ذلك يقع كما ذكرنا سابقاً في باب النكاح وليس المكاتبة، كما أن ما يدفع للمؤمنة ليدخل بها هو أجر بينما ما يدفع لما ملكت اليمين من أهل الكتاب هو صدقة.

فالأجر هو من نصيب من يدخل بها إن كانت مؤمنة سواء كانت من ما ملكت اليمين أو كانت محصنة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]

(لتمحيص هذه القضية يرجى مراجعة مقالتنا تحت عنوان زواج المتعة أو ثلاثية المرأة لتفصيل أكثر)

ما يهمّنا هنا هو أن المكاتبة غير واردة في حالة نكاح المؤمنات (لذا فإن ما يقوم به المسلمون من تدوين عقد النكاح ليس شرطاً شرعياً) بينما لابد من المكاتبة عند الدخول بما ملكت الأيمان من أهل الكتاب، وهنا ربما يطرح البعض استفساراً عن السبب من وراء ذلك.

إننا نظن أنّ السبب يكمن في أنّ المكاتبة هي – كما أسلفنا- عبارة عن إبرام عقد ليلتزم به الطرفان المتعاقدان، ولمّا كان النكاح يتم بين المؤمن والمؤمنة فقط فلا داعي للمكاتبة وذلك لأنّ الطرفين (المؤمن

والمؤمنة)- لا شك - يلتزمون بالتشريع الإسلامي، فهم يرضون أن يحتكموا بالنهاية للتشريع (القانون) الإسلامي، ويكون هذا مصداقاً لقوله تعالى في النص نفسه "بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ" عند الحديث عن الدخول بما ملكت اليمين من الفتيات المؤمنات (تأمل الآية التي ورد فيها نكاح ما ملكت اليمين من الفتيات المؤمنات). ولكن - بالمقابل- لمّا كان الطرفان (المؤمن والذميّة) في حالة الدخول بما ملكت اليمين من فتيات أهل الكتاب ملتزمين بتشريعين مختلفين، أحدهما (الداخل) مؤمن يرضى الاحتكام إلى التشريع الإسلامي بينما (ربما) لا ترضى المدخول بها (الطرف الثاني) وهي من أهل الكتاب لا ترضى (ولا تلزم أصلاً) بالاحتكام إلى التشريع الإسلامي، أصبح من الضرورة بمكان أن يخطّ الطرفان (أي أن يكتبوا) عقداً قانونياً يرضي الطرفين ليحتكموا إليه في كل شؤون تلك العلاقة الناشئة بينهما، أي ليكون ذلك العقد ملزماً للطرفين بغض النظر عن الخلفية العقائدية لكل طرف.

وبهذا الفهم يمكن تلخيص أصناف الزواج التي تحدثنا عنها في مقالاتنا السابقة تحت عنوان "جدلية الذكر والأنثى" و"تعدد الزوجات" و "زواج المتعة" على النحو التالي:

أصناف الزواج

الزواج من المؤمنة المحصنة	زواج نكاح بإذن أهلها وبأجر	عليها كامل العذاب
الزواج من ما ملكت اليمين من المؤمنات	زواج نكاح بإذن أهلها وبأجر	عليها نصف العذاب
الزواج من ما ملكت اليمين من أهل الكتاب	زواج مكاتبة بصدقة	حسب شروط العقد
الزواج من غير الأصناف السابقة (ما وراء ذلكم)	زواج متعة بأجر	-----------

النتيجة: إنّ المكاتبة غير واردة في حالة زواج النكاح (أو المناكحة) لأنّ ذلك يكون بين طرفين مؤمنين يرضون جميعاً أن يحتكموا لنفس التشريع، فيتم النكاح بالأجر بعد استئذان الأهل. بينما تصبح المكاتبة لازمة في حالة الزواج بين طرفين غير ملتزمين بنفس التشريع كدخول المؤمن بما ملكت اليمين من فتيات أهل الكتاب الذين لا يلتزمون بالتشريع الإسلامي.

عودة على معاني "كَتَبْنَا"

وهنا يجب التأكيد على أنه ليس من الضرورة بمكان أن يكون عنصر الرغبة متوافر بالمكاتبة (أي عند كتابة العقد الذي يمثل المرجعية القانونية)، فالقوانين لا تُسنّ بناءً على الرغبات (ما تحب وما لا تحب)، ولكنها تسن بكل تأكيد بناءً على المصالح (الخير والشر)، فحتى لو تعارضت رغبتك مع القانون فذاك لا يبطله، فمما لا شك فيه أن القتال – مثلاً- أمر لا يحبذه الكثيرون، ولكن الله قد كتبه علينا كما كتبه على أقوام آخرين:

- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216]

فكتابة القتال على الناس لم يكن بدافع ما يحبّوا أو ما يكرهوا، ولكن بدافع ما هو خير لهم مقابل ما هو شر لهم، فكتابة القتال على الناس هو لا شك خير لهم حتى وإنْ بدا لهم في ظاهره أنّ الأمر كره لهم

(فليس كل ما تكره هو شر وليس كل ما تحب هو خير).

المهم بالأمر بالنسبة لطرحنا هذا هو أن القانون لا يكون ساري المفعول ما لم يكتب، فكتابة القانون شرط لازم لسريان مفعوله. لذا نحن نفتري الظن بأن ما لم يكتب لا يكون قانوناً، وبالتالي لا يكون ملزماً:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

فلو لم يكتب الله عليهم القتال لما أصبح القتال مفروضاً عليهم. ولو لم تتم الكتابة في حالة الدخول بما ملكت اليمين لا يمكن إلزام أي طرف من الأطراف (الداخل والمدخول بها) بتشريع الطرف الآخر، فلا يحق لنا كمسلمين أن نحتكم إلى شريعة أهل الكتاب، ولا نلزمهم في الوقت ذاته بالاحتكام إلى تشريعنا. لذا ستضيع الحقوق ويصبح الأمر أقرب إلى شريعة الغاب يسيطر القوي فيها على الضعيف إنْ لم يصار إلى كتابة القوانين.

فمتى لم يتم اللجوء إلى الكتابة، لا يمكن معاقبة من لم يلتزم:

- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: 66]

فالله لن يعاقب القوم على عدم قتلهم أنفسهم أو عدم خروجهم من ديارهم ليس لشيء إلاّ لأنه لم يكتب ذلك عليهم، فقوله تعالى "وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ" يدل بما لا يدع مجالاً للشك عندنا أن الله لم يكتب ذلك عليهم، وبالتالي لن يحاسبهم على صنيعهم ذاك.

إن مراد القول هو أن كتابة الشيء تفضي إلى الالتزام به والاحتكام إلى ما كتب متى دعت الضرورة إلى ذلك، وبخلاف هذا التصور يصبح من الصعب علينا أن نفهم الحكمة في قوله تعالى:

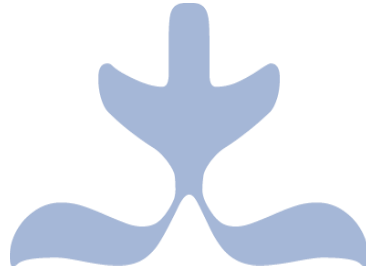
- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: 12]

فلم يضطر الإله أن يكتب على نفسه، وهل هناك قوة يمكن أن تلزم الإله بأن يكتب على نفسه شيئاً، كلا وألف كلا، بل هو العدل المطلق، فبالرغم من أننا نتحدث عن إله عادل، ولا نشك في عدله قيد أنملة، إلاّ أن الإله لم يترك هذا الالتزام الذاتي قولاً، بل دوّنه (كتبه كتابةً) ليكون الفيصل بينه وبين خلقه.

وفي هذا عبرة لكل حاكم، فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم (ولله المثل الأعلى) يجب أن تبنى على الكتابة (أي إصدار القوانين) التي يحتكم إليها الطرفان كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

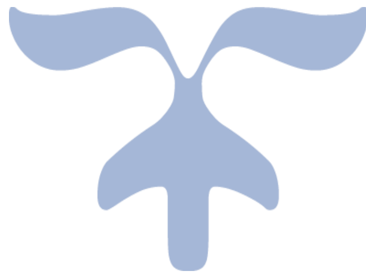
النتيجة رقم (2): تسطّر الآية الكريمة قانوناً إلهياً (سنة إلهية) بدليل أنه مكتوب كتابة ملزماً لكل الأطراف.

وللحديث بقية



ماذا كتب في الزبور؟

الجزء الثاني



ماذا كتب في الزبور؟ – الجزء الثاني

نستكمل في هذا الجزء الحديث عن معنى الفعل كَتَبْنَا الذي جاء في الآية التي تتحدث عن ما كُتِبَ في الزبور، لنتناول السؤال الثاني وهو: لماذا جاء الفعل موصولاً بضمير الجمع في قوله تعالى: كَتَبْنَا؟ فمن الذي كتب؟ أو من الذين كتبوا؟

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

لقد كان موقفنا في مقالاتنا السابقة يتمثل على الدوام في الدعوة إلى البحث عن المعاني الحقيقية للمفردات والتراكيب اللغوية كما ترد في كتاب الله بدلاً من التحليق في سماء المجازات والاستعارات حسب الهوى والميل، وكان من بين المزاعم التي طرحناها هو أن نقرأ المفرد على أنه مفرد، والجمع على أنه جمع، والمذكر على أنه مذكر، والمؤنث على أنه مؤنث، وأن لا نخلط، وذلك ليقيننا أن كل ما في كتاب الله مقصود لذاته، ولا يمكن تبديله أو تجاوزه، وزعمنا القول أنّ في حمل الأشياء على بعضها البعض مضيعة للمعاني الحقيقية ليحل محلها أفهام مغلوطة لا تسمن ولا تغني من جوع، وفي هذا السياق فإننا نرى أن تعدِية المفرد ليشمل الجمع أو العكس يحدث فوضى عارمة في معاني كتاب الله، يصعب بعدها التمييز بين الألفاظ بالدقّة المطلوبة، وربما يحدث التناقض الذي لا يمكن لأي شخص أن يزعم وجوده في كتاب مصدره العليم الحكيم. (أنظر مقالتنا: جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم)

إن محرك البحث لدينا هنا هو سؤال واحد ألا وهو: لماذا يستخدم ضمير المفرد تارة وضمير الجمع تارة أخرى في الخطاب القرآني؟ فعند الحديث عن الذات الإلهية (الله) يأتي الخطاب في كتاب الله الكريم تارة بصيغة المفرد "أنا" ومشتقاتها، ومرة أخرى بصيغة الجمع "نحن" ومشتقاتها، وسؤالنا الذي نطرحه هنا هو: لماذا؟ أي، لماذا يتحدث الله سبحانه جلّ وعلى عن نفسه بصيغة المفرد تارة وبصيغة الجمع تارة أخرى؟ لتبسيط الصورة دعنا نعقد المقارنة بين الخطاب الرباني في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [الإنسان: 23]

(وسنتحدث لاحقاً عن السبب في ورود مفردة عَلَيْكَ عند الحديث عن تنزيل القرآن **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا**، بينما لم ترد مثل هذه المفردة عن الحديث عن تنزيل الذكر **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** وذلك عند تعرضنا لمفردة الذكر لاحقاً).

حيث جاء الخطاب بصيغة الجمع، مقابل قوله تعالى في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]
- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 45-46]

حيث جاء الخطاب بصيغة المفرد.

المعضلة

لقد حمل جلُّ الفكر الإسلامي السائد الخطاب باستخدام صيغة الجمع عند الحديث عن المفرد أنه من باب التعظيم والتقدير، وكأنهم يقولون أنه عندما يتحدث الله عن نفسه بصيغة "نحن" يكون ذلك تعظيماً لشأنه، فتلك هي نظريتهم "نظرية التعظيم" في استخدام ضمير الجمع عند الحديث عن مفرد.

الـرد

بدايةً، يجب أن يفهم من كلامنا هذا أننا نرفض "نظرية التعظيم" التي الصقوها بضمير الجمع جملة وتفصيلاً، وسنحاول في السطور التالية الدفاع عن موقفنا هذا، محاولين تبيان ما ستؤول إليه الأمور إنْ صح ما نزعم وندّعي.

⇐ **أولاً**، دعنا نرد عليهم بنفس منطقهم مثيرين التساؤل التالي: هل تنتفي عظمة الله عندما يتحدث عن نفسه بصيغة المفرد؟ فهل يعظم الله نفسه تارة ولا يعظمها تارة أخرى؟!

⇐ **ثانياً**، هل ينطبق ما يصح على الناس على رب الناس؟ إننا نظن أن البلاء في فهمهم هو أنهم أخذوا صنيع البشر وطبّقوه على خالق البشر، فلقد درج البشر (وخاصة العرب وإن كانت تشاركهم في ذلك أمم كثيرة) على أنّ العظيم منهم (كالملك مثلاً) يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع، ويخاطبه الناس بصيغة الجمع، وكان ظنهم أن هذا النوع من الخطاب يمكن أن يطبّق على الإله. فنرد عليهم بالقول أن الله عظيم بغض النظر عن صيغة الخطاب، لا بل فإن عظمة الإله تتجلى أكثر بمخاطبته بصيغة المفرد على عكس ما تظنون، ولكن يبقى هذا زعم نظري يحتاج إلى دليل يستند عليه، وهذا ما سنحاول تبيانه في هذه العجالة.

الدليل

هنا نجد لزاماً الحاجة إلى التمييز أولا (وقبل كل شيء) بين أمرين اثنين وهما:

⇐ خطاب الإله عن نفسه، و

⇐ خطاب البشر عن الإله

فالحقيقة الصارخة في القرآن الكريم هي أنه عندما يتحدث الإله عن نفسه فإنه يستخدم صيغتي المفرد والجمع كما في المثالين التاليين:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: 12]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

أما مخاطبة الإنسان ربه فلا ترد في كتاب الله إلاّ بصيغة واحدة وهي صيغة المفرد:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

ونحن نتحدى أن يقدم أحد مثالاً واحداً يخاطب فيه الناس ربهم بصيغة الجمع. (وهنا يجب أن لا نخلط هذه الصيغة مع صيغة أخرى لا دخل لها بالخطاب كما في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

فصيغة الجمع هنا تعود على المتكلم، وهم إبراهيم وولده إسماعيل، وليس على المخاطب، وهو رب إبراهيم وإسماعيل)

فلو استعرضنا جميع الآيات القرآنية التي تتعلق بخطاب الناس مع ربهم (كما في الدعاء مثلاً) لوجدنا أنّ الناس جميعاً يخاطبون الإله بصيغة المفرد فقط، ربما لأن الخطاب بخلاف ذلك يحمل في ثناياه معنى الإشراك، فمن الحق أن يخاطب الناس ربهم الأعلى بصيغة المفرد، (فالإله ليس رباً أرضياً ليعظم بصيغة الجمع عندما يخاطبه الناس).

ولتبسيط الفكرة أكثر فإننا نتساءل: هل يتقبل الفكر الإسلامي أن يخاطب الناس ربهم على النحو التالي:

ربنا وسعتم كل شيء علما
أو ربنا إنكم
أو أنتم وليي
بدلاً من صيغة المفرد كما في قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: 7]
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]
- ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: 101]

كما نفعل مع ملوك وعظماء الأرض؟! الجواب: قطعاً لا يمكن أن نقبل ذلك.

إنّ فحوى القول هو أن نظرية التعظيم تلك يمكن أن تنطبق (إن صح قولهم أصلاً) في حالة الخطاب من الله إلى الناس عندما يتحدث عن نفسه تارة بصيغة الجمع وتارة أخرى بصيغة المفرد، ولكن كيف لهم أن يطبقوها في حالة مخاطبة الناس ربهم التي لا ترد بالقرآن العظيم إلا بصيغة المفرد؟ أليس من الأولى أن يكون التعظيم قادماً من الأدنى إلى الأعلى؟! يا للعجب!

البديل لنظرية التعظيم في الخطاب القرآني

لكن السؤال المشروع الذي نطرحه هنا هو: إذا كان الله لا يقبل منا أن نخاطبه بصيغة الجمع (مثل وسعتم بدل وَسِعْتَ، أو أنتم بدل أَنْتَ، أو إنكم بدل إِنَّكَ) فلماذا يتحدث هو عن نفسه بصيغة المفرد تارة وبصيغة الجمع تارة أخرى كما في الآيات التالية التي ذكرناها سابقاء ونعيدها مرة أخرى لتبين الفكرة نفسها:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: 12]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

إن الجواب الذي نقدمه هنا يتمثل بالتوقف عن استخدام المجاز، وبحمل الكلام على معناه الحقيقي فقط، فالإله يعي ما يقول، فعندما يستخدم صيغة المفرد لا شك يقصد غاية تختلف عن تلك التي

يعنيها في استخدامه صيغة الجمع، والعكس صحيح، فالمفرد مفرد والجمع جمع، لا أكثر ولا أقل. ولكن كيف؟

لو أمعنا التفكير في الآيات التي يتحدث الله فيها عن نفسه بصيغة المفرد لوجدناها تختلف اختلافاً جذرياً عن الآيات التي يتحدث الله فيها عن نفسه بصيغة الجمع، وسنقدم المثال التالي لتوضيح الفكرة.
فعندما خاطب الله نبيه موسى، جاء الخطاب في كل السياقات القرآنية التي تتحدث عن تلك الواقعة بصيغة المفرد، قال تعالى:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 12-14]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 143-144]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 8-9]
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ [النازعات: 15-16]

فلماذا جاء الخطاب من الله عن نفسه بصيغة المفرد في كل السياقات القرآنية السابقة؟

الجواب: إذا حملنا الكلام على معناه الحقيقي دون زيادة ولا نقصان سيتبيّن لنا أن الجواب بسيط للغاية يتمثل (في رأينا) بأن الله نفسه هو من خاطب موسى دونما واسطة، فلم يشترك مع الإله في ذلك الحدث أحد غيره. هل في هذا شك؟

ولكن - في المقابل- لندقق النظر بتلك الحادثة التي حصلت مع نبي الله إبراهيم عليه السلام:

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: 103-107]

دقق – عزيزي القارئ- النظر بضمائر الخطاب التي يستخدمها الله في هذه الحادثة للحديث عن نفسه، أليست هي ضمائر الجمع (**وَنَادَيْنَاهُ، نَجْزِي، وَفَدَيْنَاهُ**)؟ لماذا؟

الجواب: هل الله نفسه هو من نادى إبراهيم كما نادى موسى؟ هل الله نفسه من قدّم المكافأة لإبراهيم على صنيعه ذاك؟ أي هل الله نفسه من قدّم الفداء لإبراهيم؟

الجواب: كلا، وألف كلا، لقد أرسل الله لإبراهيم من يناديه، وأرسله بذلك الجزاء ومعه ذلك الفداء.

استراحة قصيرة

وهنا قد يرد علينا صاحبنا المعهود بالاستفسار التالي: لو صدّقنا ما تزعم، تبقى هناك معضلة: كيف بنا أن نفسّر الآية الكريمة التالية التي تتحدث أيضاً عن مناداة الله نبيه موسى في ضوء ما تزعم وتدعي؟

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

ألا تتحدث الآية عن مناداة الله نبيه موسى؟ لم إذاً يستخدم ضمير الجمع بدل ضمير المفرد كما ورد في الآية السابقة عند الحديث أيضاً عن مناداة الله نبيه موسى؟ فالقرآن الكريم يقدم لنا صيغتين لمناداة موسى، تارة بصيغة المفرد:

- ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: 16]
- ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الشعراء: 10]

وتارة بصيغة الجمع:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

ونزيد على ذلك القول أنها وردت كذلك بصيغة محيرة (يصعب التمييز فيها):

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾ [طه: 11]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ [النمل: 8]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

إنّ هذا الاستفسار المشروع ينقلنا للحديث عن مناداة الله نبيه موسى لنسأل سؤالاً واحداً ألا وهو: كم مرة تمت مناداة موسى من قبل ربه؟ هل حصلت مرة واحدة؟ هل حصل اللقاء بين موسى وربه مرة واحدة؟ الجواب: كلا، وألف كلا، لقد حصلت أكثر من مرة، فلقد حصلت عندما رأى موسى النار وهو عائد إلى مصر من أرض مدين، وعندها جاء الخطاب القرآني على النحو التالي:

- ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾ [طه: 9-11]

وهنا جاء اللفظ على صيغة المبني للمجهول نُودِيَ (كما يحب أهل اللغة وكثير من أهل الدين تسميته، ولكننا نضطر أن نسألهم في هذا المقام شيئاً واحداً فقط وهو: هل الله مجهول لنتعرف على صاحب الصوت الذي نادى موسى؟ لم جاء اللفظ على هذه الشاكلة؟) سبحان الله! من يدري!

ولكن ما يهمنا أكثر هو الاستنتاج البسيط التالي: لم تكن تلك هي الحادثة الوحيدة التي تمت فيها مناداة الله نبيه موسى، فلا شك أن موسى قد نودي عند الطور:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

وهنا يأتي فعل النداء بصيغة الجمع المعلوم (وليس المجهول)، فمن الذي نادى موسى عند الطور؟

ليبرز هنا تساؤل آخر: هل المناداة عند النار هي نفس المناداة عند الطور؟

رأينا: لقد حصلت مناداة الله موسى أكثر من مرة عند الطور، مرة كانت عند الطور والنار مشتعلة، وأخرى عند الطور ولم يكن هناك نار مشتعلة.

مما لا شك فيه أن الله قد طلب من موسى أن يذهب إلى فرعون ليبلغه رسالة ربه، وكان ذلك عندما كان موسى واقفاً على النار المشتعلة، فجاء الخطاب على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: 10-14]

ولكن ما الذي حصل بجانب الطور عندما لم تكن هناك نار؟

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: 46]
- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: 80]

نعم، لقد حصلت مناداة الله نبيه موسى بجانب الطور مرتين، حدثت في المرة الأولى عندما كان موسى عائداً مع أهله من أرض مصر، وحدثت مرة أخرى عندما كان في ميقات ربه، بعد أن كان الله قد واعده ذلك اللقاء مع سبعين رجلاً من بني إسرائيل، وكانت نتيجة اللقاء الأول أن بعث الله موسى رسولاً إلى فرعون وقومه:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: 10-11]

وكانت نتيجة اللقاء الآخر مختلفة تماماً:

- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: 80]

ولا ننسى أيضاً ذلك اللقاء الذي تم بين موسى وربه يوم أن ذهب ليلاقيه وحده تاركاً قومه وراءه، وعندها تلقى موسى من ربه الألواح:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 143-145]

الخلاصة: إن جلّ ما هو مطلوب هو أمعان التفكير في الضمائر التي وردت في كل سياق، فنحن نظن أن اللقاء الأول قد جاء بصيغة المفرد (فاللقاء كان فقط بين موسى وربه)، بينما جاء اللقاء الذي حصل فيه تنزيل المنّ والسلوى بصيغة الجمع (فالملائكة لاشك هي من تولت أمر تنزيل المن والسلوى على بني إسرائيل)، وجاء الخطاب في السياق الذي حصلت فيه الكتابة لموسى في الألواح بضمير المفرد في بدايته (فقد كان الخطاب بين موسى وربه) وانتهى الخطاب نفسه بضمير الجمع عند الكتابة (لأن الملائكة هي من تولت أمر الكتابة في الألواح لموسى).

إننا نرغب القول أن الله إذا تحدث عن عمل عمله بنفسه دونما تدخل أو وساطة من ملائكته فلا يأتي الخطاب إلا بصيغة المفرد، أما إذا كان الفعل قد نُفِّذَ بأمر من الله ولكن بواسطة ملائكته فيأتي الخطاب بصيغة الجمع، وذلك لأنّ الله صادق فيما يقول ويفعل، فلا يمكن أن يفعل الله شيئاً بواسطة خلقه ثم ينسب ذلك لنفسه بالكليّة (كما يفعل أقطاب الإعلام – ولله المثل الأعلى- الذين يسخّرون جيشاً من الناس من وراء الكواليس ليقوموا لهم بالعمل، ولكنهم يطلّون على الناس برؤوسهم ليزعموا أن هذا العمل من بنات أفكارهم وتنفيذهم، فهو من خطرت الفكرة على قلبه، وهو من بذل الجهد لتحقيقها، وهو من منّتجها وأخرجها للناس على تلك الشاكلة، فيأتي خطابه بصيغة المفرد بالرغم أن الفعل قد أشترك فيه الكثيرون). كلا، وألف كلا، ذلك لا يكون من صنيع الواحد الأحد، فالله يستخدم ضمير الجمع متى قام جنوده بتنفيذ الأمر له، ويستخدم ضمير المفرد متى نفّذه هو بنفسه ولم يطلب من ملائكته تنفيذه له.

عودة على بدء

والآن لنطبق هذا المنطق على فعل الكتابة الذي نحن بصدد التعرض له في الآية التي تتحدث عن وراثة الأرض، لنخلص إلى مثل هذا التمييز في فعل الكتابة نفسه، فالله قد يكتب بنفسه، وقد يطلب من ملائكته القيام بذلك، ولنمعن التفكير بالآيتين الكريمتين التاليتين من هذا الجانب:

- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]
- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: 21]

فالله يكتب بنفسه ما يبيّت الناس، ولكنّ رسله (من الملائكة بالطبع) هم من يكتب ما يمكر الناس (وسنناقش لاحقاً لماذا يقوم الله بكتابة ما يبيّت الناس بينما تقوم الملائكة بكتابة ما يمكر الناس، وسنرى ببساطة أنها بسبب مكان وجود المعلومة، ولكن قبل ذلك نطلب من القارئ مراجعة موقفنا بخصوص علم الله في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟ جدلية القلب والعقل)

التباين في استخدام الضمائر في السياق الواحد

وبهذا الفهم (أي أن المفرد مفرد والجمع جمع) دعنا ندقق النظر في تباين ضمائر المفرد والجمع في السياق الواحد كما يرد في بعض السياقات القرآنية، ذلك التباين الذي قلّما التفت إليه الكثيرون، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 10-16]

ولندقق النظر –على وجه التحديد- في التباين الذي حصل في استخدام الضمائر في الآية 15 في قوله تعالى "إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ"، لنطرح السؤال التالي: لماذا بعد استخدام ضمير المفرد في الحوار الذي جرى بين موسى وربه (الآيات 10-14) جاء الحديث الرباني عن نفسه هنا في الآية 15 على وجه التحديد بصيغة الجمع (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)؟

الجواب: لم يكن الله وحده من يستمع إلى خطاب موسى وهارون مع فرعون.

ولكن لو دققنا النظر في قول الحق في مكان آخر من كتابه عن نفس الحادثة لوجدنا الخطاب قد جاء على النحو التالي:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: 42-47]

فهنا نجد أن الإله يستخدم ضمير المفرد فقط فيقول "إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ"، فلماذا – نحن نتساءل- استخدم الله ضمير المفرد هنا بدل ضمير الجمع كما كان الحال في السياق السابق (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)؟

الجواب: لو أمعنا التفكير لوجدنا أن الحديث في السياق السابق (حيث استخدم ضمير الجمع) كان عن السمع فقط (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)، بينما جاء الحديث عند استخدام ضمير المفرد في السياق الثاني عن السمع وعن الروية معاً (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من هذا التباين هو النتيجة التي مفادها أن الله كان يستمع لما كان يجري بين موسى وأخيه من جهة وفرعون وملئه من جهة أخرى وكان آخرون (الملائكة) يستمعون في ذلك الموقف. أما في السياق الآخر فقد انحصرت الرؤيا في الذات الإلهية، وبكلمات أخرى نقول: في حين أن الملائكة كانت تستمع فقط (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) كان الإله يسمع ويرى (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ).

(وسنتعرض لاحقاً لمعنى مفردة مَعَكُمْ و مَعَكُمَا التي وردت في السياقين السابقين لنطرح سؤال واحداً مفاده: ما معنى أن يكون الإله معهم أو معهما؟)

ولكن هناك تبايناً أشد لفتاً للانتباه في السياقين السابقين ألا وهو استخدام كلمة رَسُولُ بصيغة المفرد في السياق الأول (فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، واستخدام صيغة المثنى رَسُولَا في السياق الثاني (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ). ونحن نتساءل عن سبب ورود المفرد بصيغة المفرد في سياق قرآني وورودها بصيغة المثنى في سياق آخر؟

الجواب الذي نزعم: إن ذلك يحتاج إلى تدقيق السياق القرآني الذي وردت فيه كل صيغة من هذه الصيغ كاملاً (صيغة المفرد رَسُولُ في سورة الشعراء وصيغة المثنى **رَسُولَا** في سورة طه) لنخلص إلى الفهم التالي: لقد جاءت مفردة رَسُولُ عندما لم يكن هارون قد أوحي إليه بعد، وجاءت مفردة رَسُولَا بعد أن تم الوحي إلى هارون، وسنحاول الآن الدفاع عن هذا الزعم.

الشعراء	طه
﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء: 10-14]	﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ [طه: 42-47]

ربما يكفي أن نشير هنا إلى حقيقة بسيطة وهي طلب موسى من ربه في كل صيغة، فقد جاء الطلب في سورة الشعراء على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء: 12-13]

بينما جاء الطلب في سورة طه في سياقه الأوسع على النحو التالي:

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ

أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي
﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ
سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ
فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾
إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا
فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ
لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا
لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ
أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن
رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن
رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: 9-49]

أنّ الغاية من اقتباس النص كاملاً من سورة طه هو تبيان حقيقة قرآنية واحده وهي أن الله قد طلب من موسى الذهاب إلى فرعون مرتين في النص نفسه، جاء في المرة الأولى على النحو التالي:

- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: 24-36]

وجاء الطلب في المرة الثانية في السورة نفسها على النحو التالي:

- ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: 43-48]

ولو أمعنا التفكير جيداً لوجدنا أن الفعل "**ٱذۡهَبۡ**" قد ورد بصيغتين وهما أذهب في بداية السياق في الآية 24 **ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (24)** واذْهَبَا في وسطه في الآية 43: **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43)**

فالسؤال الذي لا مفر منه هو: لماذا تكرر هذا الفعل (الأمر بالذهاب) مرتين في نفس الموقف، مرة بصيغة المفرد **اذْهَبْ** ومرة أخرى بصيغة المثنى **اذْهَبَا** ؟

إن المدقق في السياقات يجد أن الأمر الرباني الأول بالذهاب قد جاء مباشرة بعد أن كان رد موسى على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: 10-14]

فجاء الرد المباشر من الله على النحو التالي:

- ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 15-16]

وهذا يعني –في نظرنا- أن هارون لم يكن قد أصبح رسولاً من رب العالمين إلى فرعون بعد، فالله كان في تلك اللحظة قد أرسل رسوله (من الملائكة) إلى هارون، ولم يكن خبر بلاغ هارون الرسالة قد تم بعد (أي لم يكن هارون قد أوحي إليه بعد)، وما هو إلا وقت قصير جداً يتم خلاله متابعة الحوار بين موسى وربه حتى تكون الرسالة قد وصلت إلى هارون بأنه رسول آخر إلى فرعون مع أخيه موسى عندها يتكرر الأمر الرباني لموسى ولكن هذه المرة بصيغة المثنى:

- ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: 47]

افتراء من عند أنفسنا: وفي هذه اللحظة نحن نفتري الظن أنه قد جاء خبر من الله إلى موسى بأن هارون قد قبل الوحي، وقبل أن يشترك في المهمة الموكلة إليه معك للذهاب إلى فرعون. فالآن سيذهب موسى إلى هارون وهو يعلم ما قد أوكل الله إليه من مهمة لينفذها مع أخيه موسى.

الخلاصة: عندما لم **يكن** هارون قد أصبح رسولاً من الله إلى فرعون كوزير لأخيه موسى جاء فعل الأمر بالذهاب بصيغة المفرد (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، ولكن لما انتهى الخبر إلى هارون بأنه رسولاً آخر من الله إلى فرعون مع أخيه موسى جاء الطلب الإلهي بصيغة المثنى (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ). لذا تكرر الأمر الرباني لموسى في ذلك الموقف بالذهاب إلى فرعون مرتين: مرة قبل أن يصبح أخاه هارون وزيراً له ورسولاً معه إلى فرعون وقومه ومرة بعد أن وصلت الرسالة إلى هارون.

ولو راقبنا فعل القول في كامل السياق لوجدنا أن فعل القول قد ورد أيضاً بصيغتين، فقد جاء في بداية السياق بصيغة المفرد قَالَ (ربما لأن الوحي لم يكن قد انهي إبلاغ هارون رسالة ربه بعد)، فموسى كان المقصود بالرد على كلام ربه:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: 12-15]

ولكن عندما أتم الوحي إبلاغ الرسالة إلى هارون وأصبح بذلك رسولاً مع أخيه إلى فرعون وقومه جاء الخطاب في فعل القول بصيغة المثنى:

- ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ [طه: 43-48]

وهنا فقط اشترك هارون في الأمر، فأصبح القول يخصه كما يخص أخيه موسى. ويمكن أن يؤكد زعمنا هذا ما ورد في الآية 46 الأخيرة في السياق (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) لنقول بأن الوحي في هذه اللحظة قد جاء الأخوين موسى وهارون ولم يكن من نصيب موسى فقط.

ولو دققنا في النصين السابقين أكثر لوجدنا فرقاً جوهرياً آخر وهو ما ورد بعد فعل القول بصيغة المفرد وفعل القول بصيغة الجمع، ونعيدهما هنا لتفقدهما من هذه الزاوية:

صيغة المفرد

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء: 12-16]

صيغة المثنى

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ [طه: 45-48]

ونقصد هنا على وجه التحديد قول موسى في الآية 14: وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ

وعدم ورود هذه الفكرة في قول موسى وأخيه هارون بعد أن تم الوحي إلى هارون وأصبح رسولاً إلى بني إسرائيل (كأخيه موسى)، وهنا يكون الجواب – في رأينا- غاية في الوضوح والبساطة وهو أنّ لآل فرعون ذنب على موسى فقط ولم يكن لهم ذنب على أخيه هارون. فيستحيل أن يقول موسى وهارون معاً (بصيغة المثنى) أن لآل فرعون ذنباً عليهما الاثنين، فالذنب واقع على كاهل موسى فقط، فهو الذي قتل الرجل الذي من شيعة فرعون عندما استغاثه الذي من شيعته (ولم ينكر موسى تحمّله المسؤولية لفعلته تلك). فهارون لا يشترك مع موسى في تحمل ذاك الذنب، لذا جاء الخطاب عن الذنب بصيغة المفرد (**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**)، ولكن هارون - لا شك- مشترك مع موسى بأمر آخر وهو الخوف من فرط فرعون وطغيانه:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [طه: 45]

فالخوف (من فرط فرعون وطغيانه) لم يكن واقعاً في نفس موسى وحده وإنما في نفس هارون كذلك، فجاء الخطاب عن الخوف بصيغة المثنى وليس بصيغة المفرد (كما كان الخطاب عن الذنب الذي تحمله موسى لوحده).

إن ما يهمنا في هذا الطرح هنا هو أمر واحد: إدراك التباين في استخدام الضمائر في كتاب الله، والآن لنمعن التفكير في تباين استخدام الضمائر في السياق الواحد كما في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 143-145]

دقق –عزيزي القارئ- وتدبر كيف تحوّل الضمير في قوله "_وَكَتَبْنَا" إلى صيغة الجمع بعد أن كان الخطاب على صيغة المفرد في قوله_اصْطَفَيْتُكَ و آتَيْتُكَ، لماذا؟

الجواب: نعم الله هو نفسه من اصطفى موسى وهو نفسه من آتاه ذاك الشيء الذي طلب منه أن يأخذه (اصْطَفَيْتُكَ، آتَيْتُكَ)، ولكنه – ببساطه- ليس هو نفسه من كتب لموسى في الألواح بدليل قوله "وَكَتَبْنَا"، فلو كان الله هو نفسه من كتب لموسى في الألواح لجاء الخطاب على صيغة "وكتبت"، وهنا قد يحتج البعض بالقول: وهل يمكن أن يكتب الله بنفسه؟

فنرد على من يحتج على مثل زعمنا هذا بالقول أن صيغة المفرد في فعل الكتابة الذي ينفذه الله بذاته قد وردت في القرآن الكريم، وقد قدّمنا الآية سابقاً، ولكننا نعيدها هنا لتثبيت حجتنا:

- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

فما دام أن الله يكتب بنفسه كما في قوله تعالى "وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ"، فلم لم يقل الله أنه قد كتب لموسى في الألواح على نحو (وكتبت له في الألواح من كل شيء)؟

نحن نظن أنه لمّا أوكل الله المهمة (بأمر منه بالطبع) لملائكته لينفذوا هم فعل الكتابة في الألواح التي أخذها موسى وقفل عائداً إلى قومه جاء الفعل مرتبطاً بضمير الجمع "وَكَتَبْنَا".

ولو أمعنا النظر في كل السياقات القرآنية التي جاء فيها الضمير المنسوب للذات الإلهية بضمير الجمع لوجدنا حقيقة صارخة وهي أن الله قد أوكل المهمة إلى ملائكته ليقوموا بتنفيذها، فها هو إبراهيم يتلقى أمر فداء ابنه من الذبح من ربه ولكن عن طريق رسل الله من الملائكة:

- ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ [الصافات: 103-107]

وها هو محمد يتلقى الوحي من ربه عن طريق ملائكة الله:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان: 23]

وها هو الله نفسه قريب منا ولكنّه ليس وحده:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]
- ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: 83-85]

والشواهد من كتاب الله على هذا الاستخدام وافرة جداً، المهم في ما نزعم هنا هو عدم الخلط في محاولة فهمنا استخدام الضمائر في كتاب الله، فهي مقصودة لذاتها، فإن جاء الضمير على صيغة المفرد فلا نشك قيد أنملة أن هناك سبب لذلك، وإن جاء على صيغة الجمع فلا نفقد الإيمان بأن هناك حكمة من وراء ذلك، ينبغي علينا أن نبحث عنها، وأن لا نرضى بتجويز الألفاظ لبعضها البعض لا لشيء وإنما لقصور أفهامنا عن إدراك الحقائق.

وهنا نطرح على القارئ الكريم السؤال التالي الذي تثيره الآيات الكريمة في قصة موسى مع صاحبه، والسؤال يتمحور حول فعل الإرادة (**فَأَرَدتُّ** و **فَأَرَدۡنَا** و **فَأَرَادَ رَبُّكَ**) في تأويل الرجل صاحب موسى لما قام به من أفعال:

فعن تأويل حادثة خرق السفينة فينسب الرجل فعل الإرادة لنفسه فيقول "_**فَأَرَدتُّ** "

- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]

وعن تأويل قتل الغلام ينسب الرجل فعل الإرادة له ولغيره فيقول بصيغة الجمع "_**فَأَرَدۡنَا** "

- ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 81]

وعن تأويله لبناء الجدار دون أخذ الأجر عليه ينسب الرجل فعل الإرادة إلى رب موسى:

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: 82]

السؤال: لماذا تغير فعل الإرادة مع كل حادثة؟ هل هذا من قبيل المصادفة؟

(هذا ما سنتعرض له بحول الله وتوفيقه عند الحديث عن قصة موسى مع هذا الرجل في مقالاتنا القادمة بحول الله وتوفيقه، لذا فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً)

نتيجة مفتراة: إن النتيجة التي نجهد في محاولة للوصول إليها فيما يخص الفعل الإلهي بالكتابة الذي ورد في آية وراثة الأرض هي: ما دام أن فعل الكتابة قد وقع لإبرام عقد قانوني يلزم جميع الأطراف ببنوده كان

لابد من توافر الكاتب والشهود على ذلك، ولعلنا نظن أن الله قد اختار أن يكون قانونه الكوني المتمثل في وراثة الأرض لعباده الصالحين (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) مسجلة (مكتوبة) كتابةً (وليس فقط قولاً) بحضور الشهود عليها، فتم الحدث بوجود الجمع الذين سيشهدون على ما تمت كتابته، لذا جاء الفعل على صيغة الجمع "كَتَبْنَا".

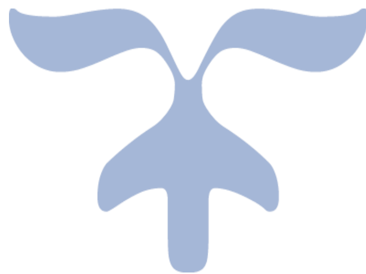
النتيجة رقم 3: لقد كتب الله سنته الكونية بأن تكون وراثة الأرض لعباده الصالحين كقانون ملزم له بحضور الشهود على ذلك ومنهم من قام بفعل الكتابة بأمر من ربهم.

وللحديث بقية



ماذا كتب في الزبور؟

الجزء الثالث



ماذا كتب في الزبور؟ – الجزء الثالث

الزبور

في هذا الجزء ننتقل للحديث عن مفردة أخرى في آية وراثة الأرض التي نحاول – بحول الله وتوفيقه- تجلية بعض معانيها، والمفردة التي جاء الدور ليقف عندها هي مفردة الزبور:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

لنتعرض لسؤال واحد فقط ألا وهو: ما هو **الزَّبُور**؟

لقد درج جلُّ الفكر الإسلامي على الظن بأن الزبور هو كتاب الله الذي أنزله على داوود (انظر أقوال العلماء في هذا الصدد)، وكانت حجتهم في ذلك قول الحق في موضعين من كتابه الكريم أنه قد آتى داوود زَبُورًا:

- ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: 55]

فهم يعتقدون أن سنة الله في وراثة الأرض (على أنها حق ملازم لعباد الله الصالحين) هي سنة إلهية مكتوبة في زبور داوود، أليس كذلك؟

موقفنا: إننا نظنّ جازمين أن كلامهم ذاك يخلو من الدقة، فتلك السنة الكونية ليست مدوّنة (مكتوبة) في زبور داوود فقط ولكنها مكتوبة في الزبور. وهنا سيرد الكثيرون بغضب: ما الفرق؟ ما الجديد فيما تقول؟

الجواب: إننا نظن أن زبور داوود يختلف عن الزبور الذي كتبت فيه آية وراثة الأرض، فتلك الآية ليست مكتوبة في زبور داوود فقط.

الدليل

إن الدليل لدينا على أن تلك السنة الكونية ليست مكتوبة فقط في زبور داود يتمثل في أننا نرى (وربما نكون مخطئين) أن المفسرين قد خلطوا مفردة **الزَّبُورِ** التي وردت في آية وراثة الأرض مع مفردة **زَبُورًا** التي وردت في موطن الحديث عن ما جاء به داوود من ربه. وكان الخلط يتمثل في عدم التميز بين مفردة "الزبور" ومفردة "زبورا"، ولب القول هو أن داوود لم يأتِ بـ "الزبور" ولكنه جاء بـ "زبورا"، فالله لم يقل في كتابه الكريم أنه قد آتى داود **الزَّبور**، ولكنه أكّد أنه قد آتى داوود **زَبُورًا**، فما الفرق؟

رأينا: إننا نعتقد جازمين أن الفرق يتمثل في أن مفردة الزَّبُورِ قد جاءت معرفة بأداة التعريف لتفيد التخصيص والإفراد، بينما تفيد مفردة زَبُورًا التنكير على معنى التعدد، فلو جاء النص في كتاب الله على نحو "وآتينا داوود الزبور"، لـ (ربما) سلّمنا بقولهم وظننّا بصحته، ولكن لمّا وجدنا أن صريح اللفظ القرآني قد جاء بصيغة التنكير "**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**" وليس التعريف (الزَّبُور)، فإننا نظن أن لدينا الحق أن نتساءل عن العلة من وراء ذلك.

الفرق بين الزَّبُورِ (بصيغة التعريف) و زَبُورًا (بصيغة التنكير)

لقد جاء قول الحق عند الحديث عن داوود على النحو التالي:
"وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا"
بينما جاء قوله تعالى عند الحديث عن وراثة الأرض على النحو التالي:
"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ"
إذاً، لنطرح السؤال نفسه: ما الفرق بين **الزَّبُور** الذي كتب الله فيه وراثة الأرض و **زَبُور** داوود؟

جواب: إنّ الحقيقة التي ربما يصعب المجادلة فيها هي أن جمع كلمة زبور هي مفردة "زُبُرِ"، فعند استعراض السياقات القرآنية التي تتحدث عن الزبر نجد الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 184]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥﴾ [فاطر: 25]
- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ٤٣﴾ [القمر: 43]
- ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ٥٢﴾ [القمر: 52]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 43-44]

إن المدقّق في هذه السياقات القرآنية يجد حقيقة صارخة وهي أنّ كثيراً من رسل الله جاءوا أقوامهم بالزُّبُرِ، فليس داوود وحده من جاء قومه بالزبور. لذا، فإننا نفهم أنه عندما قال الله تعالى في خضم الحديث عن داوود "**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**" فذاك يعني دون أدنى شك عندنا أن داوود قد جاء قومه بواحد من الزُّبُرِ كما جاء رسل آخرون أقوامهم بزبر من ربهم، إذاً هناك زبر كثيرة جاء بها كثير من الرسل من ربهم إلى أقوامهم مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 184]

افتراء من عند أنفسنا: إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من هذا النقاش هنا هو – نحن نظن- أن وراثة الأرض التي كتبها الله لم تكن في زبور واحد، وإلا سيطرح حينئذ السؤال نفسه: ماذا عن زبر الرسل الآخرين؟ هل كتبت فيها تلك السنة الكونية؟ ثم، لِمَ كان زبور داوود من بينها جميعا هو من كتبت فيه تلك السنة الكونية؟

رأينا: كلا، لقد كتبت تلك السنة الكونية أولاً في **الزَّبُور**، وليس فقط في زبور داوود. لذا، غالباً ما وقع الناس فريسة الفهم الخاطئ في أن تلك الكتابة الخاصة بوراثة الأرض قد خطت في زبور داوود.

النتيجة: إننا نعتقد جازمين أنّ كتابة السنة الإلهية في وراثة الأرض لم تكن في زبور داوود وإنما في الزَّبُور، فما هو ذلك الزبور الذي كتبت فيه سنة وراثة الأرض؟

ما هو الزَّبُور؟

لنعيد بعض الآيات السابقة ونتفقدها من هذا الجانب:

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: 43]
- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: 52]

لنطرح بعض الأسئلة التي يمكن أن تثيرها هذه الآيات الكريمة:

⇐ ما هي الزبر التي يمكن أن يكون لـ أولئك الناس براءة فيها؟

⇐ وكيف يمكن أن يكون كل شيء فعلوه في الزبر؟

إن المتفحص لهذه الآيات الكريمة قد يصل إلى حقيقة بسيطة جداً تتمثل – في رأينا- في أنّ الزبر هي المكان (أي السجل) الذي يكتب فيه. فمن يحتاج إلى براءة لابد أن تكون مكتوبة في الزبر:

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: 43]

ولا شك أن كل ما يفعل الإنسان يسجل عليه، ولكن أين يتم تسجيل تلك الأعمال؟

الجواب: في الزبر مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: 52]

ولا شك أن لكل أمة زبورها:

- ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: 196]

ولكن، لمّا كانت سنن الله الكونية لا تتبدل ولا تتغير:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 62]

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 23]

كان لا بد من أن تشترك تلك الزبر في تلك السنن الكونية المكتوبة فيها جميعاً.

سيرد صاحبنا هنا على الفور بالتساؤل التالي: إنْ صحّ ما تزعم، فما الداعي أن يكون لكل أمة زبورها الخاص بها؟

الجواب: المنهاج والتشريع، مادام أن لكل أمة منهاجاً وتشريعاً، كان لابد من أن يكون لها زبورها الخاص ليجعلها متميزة عن غيرها:

- ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

فيكون ذلك قد كتب أيضاً في زبورها، الأمر الذي يجعلها تتميز عن غيرها من الأمم. فزبور كل أمة مكتوب فيه شيئان اثنان:

⇐ - سنن الله الكونية التي تشترك فيها كل الأمم

- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ [الفتح: 23]

⇐ التشريع والمنهاج الذي يخص تلك الأمة على وجه التحديد

- ﴿...لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ...﴾ [المائدة: 48]

وربما ينطبق هذا التشخيص - في رأينا- على الأمة الواحدة عندما تنقسم وتتفرق إلى أحزاب متصارعة مختلفة، عندها يقوم كل حزب بكتابة قوانينه و أفكاره التي تجعله مختلفاً عن الآخرين، وهذا بالضبط ما نفهمه حتى الساعة من قول الله تعالى في كتابه الكريم:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53]

عندها يتقطع زبور الأمة الواحدة إلى زبر متعددة، لتصبح كل فرقة أو كل حزب مغتر بحزبه، فرح به.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كانت لكل أمة زبورها، وقد كُتِب لها في ذلك الزبور ما فعلت (أي تشريعها ومنهاجها)، ولما كانت الأمم تتشارك في سنن الله الكونية المكتوبة في زبور كل واحدة منها (سنة الله)، كان لابد في النهاية من تجميع كل تلك الزبر في زبور واحد يصبح هو الزبور الذي يضم زبر كل الأمم والأحزاب والفرق المختلفة، وذلك الزبور هو السجل المرجع لكل الزبر الفرعية، وهو ما يصبح اسمه "الزبور" الذي – نظن أن الله قد كتب فيه سنته الكونية في أن الأرض يرثها عباده الصالحون. وبتطبيق المنطق نفسه نستطيع القول أنّه لما كانت تلك السنّة الكونية في وراثة الأرض مكتوبة في الزبور الأصل الذي يضم كل الزبر الفرعية، يصبح من البديهي أن تكون تلك السنة (أو ذاك القانون) موجودة في كل الزبر الفرعية، فقد كتب الله في سجل كل أمة (أي زبورها) أن الأرض يرثها عباده الصاحون. وورود هذه الآية في سورة الأنبياء على وجه التحديد له دلالاته التي قد لا تخفى على الكثيرين، وسنرى لاحقاً أن ذلك القانوني الرباني (أو السنة الإلهية) في وراثة الأرض ليس خاصاً بأمة محمد أو أتباع عيسى أو موسى أو أي نبي آخر على وجه التحديد وإنما تشريع يخص كل أنبياء الله ورسله ما داموا أنهم قد جاء أقوامهم بالبيّنات والزبر من ربهم.

النتيجة: وراثة الأرض قانون مكتوب في الزبور، فهو إذاً مكتوب في كل الزبر (أي لكل الأمم)، وبالتالي فهو قانون إلهي ينطبق على كل عباد الله بغض النظر عن الرسول الذي أرسله الله إليهم

استراحة قصيرة

ربما يسلط مثل هذا الفهم –على علاّته- الضوء من جديد على آية كريمة غالباً ما فُسِّرت بطريقة – في نظرنا- خاطئة، والآية الكريمة هي قول الحق الذي جاء في خضم الحديث عن القوم الذين اتّبعوا موسى بعد خروجهم من أرض مصر:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

وما هي إلا لحظات حتى يرفض القوم دخول الأرض:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 22-25]

فيأتي العقاب الرباني الفوري لهم على نحو:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 26]

ويكون سؤالنا الذي نطرحه هنا هو: كيف يستقيم المعنى أن يكون الله قد كتب لهم تلك الأرض المقدسة ليأتي عقابه لهم على نحو أنه يُحرِّم عليهم دخولها؟ ألم يكتبها الله لهم كما ينص على ذلك صريح اللفظ في الآية 21؟ لِمَ يمنعهم إذاً من دخولها في نفس السياق في الآية 26؟ هل تراجع الإله عن وعده؟! قد يرد البعض بالقول بأن تحريم الأرض عليهم كان لفترة محددة وهي أربعين سنة (انظر تفاسير العلماء الأجلاء)، فنقول كلا لأنّ الأربعين سنة تلك كانت خاصة بالتيه (أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) كما هي خاصة بتحريم دخولها (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)، ولكن حتى لو سلمنا بالمنطق الذي يقدمونه بأن تحريم الأرض عليهم كان أربعين سنة فقط، ألا يوصلنا ذلك إلى سؤال أكثر أثارة ونتيجة أكثر غرابة؟ ألا يوصلنا إلى تناقض يصعب فهمه وهو: إذا كان الله قد حرم عليهم الأرض أربعين سنة فقط، وإذا كان الله قد كتب لهم تلك الأرض المقدسة، فلم إذاً نجادلهم بها وندعي أن لنا أحقّية فيها؟ أليست هي إذاً ملكاً لهم مادام أن الله هو من كتبها لهم؟

وبكلمات أكثر دقة، إذا كنا نعرف أنّ الأرض المقدسة هي فلسطين التاريخية (وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً عند حديثنا عن مفردة الأرض) وإذا كنا نؤمن بكلام ربنا في قرآننا أنّ الله قد كتبها لبني إسرائيل، فلم إذاً نجادلهم بذلك؟ ألم يأتي قول الحق صريحاً في قرآننا **"يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ"**؟

إن مثل تلك الإجابات السابقة توقعنا في إشكالات لا يمكن قبولها، لأن السيناريوهات المطروحة تصبح على النحو التالي:

⇐ ما أن نسلم أن الله قد كتب تلك الأرض لبني إسرائيل ولكنه عاد ليحرمها عليهم إلى الأبد، وعندها

يمكن استدراجنا إلى المنطق القائل بأن الإله قد تراجع عن قراره، وفي هذا إشكالية لأننا نتّهم الإله بأنه يقدّم شيئاً (لنقل وعداً) ثم ما يلبث أن يتراجع عنه،

⇐ أو أنّ الإله قد كتب فعلاً تلك الأرض لبني إسرائيل ولكنّه حرّمها عليهم أربعين سنة فقط، وفي هذا الفهم إشكالية لنا، لأنّه يصبح من غير المنطقي أن نطالب نحن بني إسرائيل بالتخلي عن تلك الأرض ما دام أن الله نفسه قد كتبها لهم.

الفهم البديل

والآن لنقدم فهمنا البديل لتلك الأفهام، مركزين على الآيات نفسها فلا نزيد عليها ولا ننقص منها، ولنبدأ بقول الحق:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 21]

نعم، الله قد كتب لـ أولئك القوم تلك الأرض، أليس كذلك؟ ولكن، هل يعني ذلك أن الله لم يكتبها لغيرهم؟

أولاً، لاحظ أن الله لم يقل في كتابه الكريم "يا بني إسرائيل ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم"، لذا فإننا نرى أن المفارقة الغريبة الأولى في كلام المفسرين السابقين تكمن في فهمهم (وبالتالي استبدالهم) كلمة القوم التي وردت في الآية الكريمة نفسها على أنها تعني" بني إسرائيل" على وجه التحديد، فالله قد كتب الأرض المقدسة لؤلئك النفر (القوم) الذين خرجوا مع موسى من أرض مصر هاربين من فرعون وملئه، أليس كذلك؟ فهل كان كل الخارجين مع موسى من بني إسرائيل فقط؟ وأين هم السحرة – مثلاً- الذين أمنوا بموسى وهربوا معه بعد أن كان فرعون قد جمعهم من كافة المعمورة؟ (للتفصيل حول مفردة قوم كما ترد في السياقات القرآنية فإننا ندعو القارئ الكريم إلى قراءة مقالتنا تحت عنوان من هي زوجة موسى؟)

أما المفارقة الثانية في تفسيراتهم فتكمن –في رأينا- في عدم فهمهم للحكمة الإلهية من كتابة تلك الأرض لـ أولئك القوم على وجه التحديد، أي: لم يختار الله – إنْ صح كلامهم- قومية معينة ليكتب لها أرضاً بعينها؟ أليس في ذلك اتهاماً مبطناً للإله بتبنيه نظرية تفوق العرق (شعب الله المختار)؟ لم يختار الله شعباً محدداً دون شعوب الأرض الأخرى ليكتب لهم الأرض المقدسة على وجه التحديد؟ إن صحت مثل تلك النظرية (نظرية شعب الله المختار)، فذاك إلههم ولا حاجة لنا به، فليذهبوا هم وإلههم الذي اختارهم وفضلهم علينّا دون وجه حق إلاّ لأنهم من سلالة جينية معينة.

كلا، وألف كلا، إن الإله الذي نؤمن أنّه ربنا وربهم ورب الناس جميعاً لا شك عادل لا يتخذ قرارا كهذا دون حكمة بالغة لا يختلف عليها كل ذي لب، فنحن نعتقد أن الحكمة في ذلك تتمثل في قول الحق الذي جاء في الآية نفسها التي نحن بصدد تجلية بعض معانيها:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

نعم، تلك هي الحكمة في وراثة الأرض (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)، ولو ربطنا هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن السنة الكونية في وراثة الأرض بالآية السابقة التي تتحدث عن أولئك القوم الذين خرجوا مع موسى من أرض مصر على وجه التحديد لوجدنا التناسق العظيم الذي لا يمكن أن يسبب إشكالية لأحد:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

نعم، لقد كان أولئك القوم قوما صالحين في تلك الفترة فاستحقوا أن يكونوا هم ورثة تلك الأرض بغض النظر عن العرق (الجنس) الذي كانوا ينتسبون إليه.

وقد يرد البعض على الفور بالقول: لكن ألا ترى أن القوم لم يكونوا صالحين بدليل أنهم رفضوا الأمر الإلهي لهم بدخول الأرض المقدسة، وبدليل أن الله قد عاقبهم على ذلك، فنرد على الفور بالقول بأنّ كلامك ربما يصح لو كان شرط وراثة الأرض الذي ورد في الآية الكريمة هو الإيمان أو الإسلام أو الطاعة للأمر الإلهي، أي لو أن الله قال في كتابه الكريم:

أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ المؤمنون

أو

أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ المسلمون،

وهكذا. فلو كان الأمر على هذا النحو، لـ (ربما) سلّمنا بصحة قولك، ولكن لو تدبرت معنا الآية أكثر لوجدت –دون أدنى شك- أن شرط وراثة الأرض لم (ولن) يكن الإيمان أو التسليم أو الإذعان لأمر الله، ولكن الشرط الذي أختطه الله في كتابه لوراثة الأرض هو الصلاح (**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**)، وهناك فرق كبير بين **الإيمان و الصلاح**، لذا فنحن بحاجة أن نفهم لِمَ جعل الله الصلاح (وليس الإيمان أو الإسلام أو الإذعان أو الطاعة، الخ) شرط وراثة الأرض، وما نطلبه من القارئ الكريم ليس أكثر من التريث قليلاً حتى يتم التعرض لمعنى مفردة "**الصَّالِحُونَ**" التي جاءت في الآية الكريمة نفسها كشرط لوراثة الأرض:

أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

ليتعرف بعدها على الحكمة الإلهية في أن يكون الصلاح على وجه التحديد هو الشرط اللازم توافره لوراثة الأرض.

إنّ ما يهمنا هنا هو الزعم بأن القوم الذين كتب الله لهم تلك الأرض كانوا في تلك الفترة قوماً صالحين عندها استحقوا أن يرثوا تلك الأرض، ولكن لمّا ذهب صلاحهم حرمها الله عليهم، فكانت تلك هي سنة الله على الدوام في وراثة الأرض (الأرض المقدسة): لا يرثها إلا من كان صالحاً.

وقد يرد البعض بالقول: وكيف ذهب صلاحهم وهم أنفسهم من كانوا قبل قليل صالحين كما تزعم؟

الجواب: لنتدبر قليلاً ما حصل للقوم في تلك اللحظة بالذات: موسى يطلب من القوم الذين صاحبوه الخروج من مصر أن يدخلوا الأرض التي كتب الله لهم كما جاء في كتاب الله على لسان موسى:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

يرفض نفر من القوم (وليس كل القوم) الإذعان لطلب موسى ذاك متذرعين بالحجة التالية:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

ينبري نفر قليل من القوم ليحثوا قومهم على الإذعان لطلب نبيهم موسى قائلين:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

يرد الغالبية العظمى من القوم بالرفض الصريح:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

عندها ما يكون من موسى إلا أن يرد عليهم بالقول:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

والآن، دقق –عزيزي القارئ- ملياً بما حصل: القوم لم يتركوا الإيمان بدين موسى، ولم ينكروا أن رب موسى هو ربهم، ولكن جل ما فعلوه هو أنهم رفضوا دخول الأرض المقدسة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل حدث جدل بينهم، بعضهم يريد دخول الأرض:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

والبعض الآخر لا يريد ذلك:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

فيتخذ موسى موقفه الخاص بما حصل:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

ولو دققنا - عزيزي القارئ- جيداً بطلب موسى من ربه " **فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**، لنسأل: ألم تحصل الفرقة إذاً بين موسى ومن معه من جهة ومن رفض الأمر الإلهي وأصبح من مجموع الفاسقين؟ ألا يدلك ذلك على صدق قول الحق:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53]

لقد أصبحوا بسبب تلك الفرقة أحزاباً، لأنهم تقطعوا أمرهم زبرا، وسنرى لاحقاً أن ذلك سبباً كافياً لأن ينتفي صلاحهم، وبالتالي انتفاء أحقيتهم بوراثة الأرض حتى يعودوا قوماً صالحين من جديد (أي لا يختلفوا ولا يتقطعوا أمرهم بينهم زبرا).

ولا ننسى أن ننتبه إلا ما قاله موسى في نهاية المطاف، فلقد نعت القوم بالفسق:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

وسنرى لاحقاً بحول الله وتوفيقه أن الفسق هو عكس الصلاح تماماً.

دليل آخر: سورة الإسراء

وهنا ننتقل مباشرة إلى سورة الإسراء لنطرح حولها سؤالاً واحداً ربما يفيدنا في تحديد هوية الأمة التي يكون لها أحقية وراثة الأرض، والسؤال هو: من هي الأمة المقصودة في الخطاب في بداية تلك السورة

العظيمة؟ وسنقدم الآيات الكريمة التي نظن أنها ذات صلة بالموضوع أولاً، ثم نطرح سؤالاً واحداً بعد ذلك:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ
ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن
دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا
لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ
وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا
جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ
تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي
لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾ [الإسراء: 1-10]

هذه هي الآيات العشرة الأولى من سورة الإسراء، وجل ما نطلبه هنا هو أن يحدد القارئ بنفسه الأمة الموجّه لها الخطاب في كل آية من هذه الآيات العشرة.

فمن الذي ردد الله الكرّه لهم عليهم؟ ومن الذي أمددهم الله بأموال وبنين وجلهم أكثر نفيرا؟ ومن الذين سيسوءوا وجوهم؟ ومن الذين سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة؟ ومن الذين سيتبرون ما علوا تتبيرا؟ ومن الذين عسى الله أن يرحمهم؟ ومن الذين إن عادوا عاد الله عليهم؟ الخ.

إنني أطلب من كل من يقرأ هذه السطور أن يراجع بنفسه تفاسير العلماء لهذه الآيات الكريمة ويقارن بينها، ليرى بأم عينه، وليكتشف بنفسه مقدار التخبط الذي وقعوا وأوقعوا الناس فيه عندما حاولوا تجيير خير هذه الآيات لهم والشر الذي تتحدث عنه إلى غيرهم.

رأينا: إننا نظن أن من الاستحالة بمكان تحديد أمة معينة على أنها المقصودة بذلك الخطاب، فما دام أن تلك الآيات تتحدث أيضاً عن وراثة الأرض المقدسة، لذا فإن الأمة المقصودة في الخطاب التي سترث تلك الأرض هي الأمة الصالحة بغض النظر عن صحة عقيدتها، فعباد الله جميعاً (مسلمون ويهود ونصارى و...) لهم الحق في وراثة تلك الأرض حتى لو كانت عقيدتهم منحرفة ماداموا صالحين، فإن كنت أنت الأصلح تصبح وراثة الأرض من حقك، وبالمقابل فإن لم تكن على درجة كافيه من الصلاح (حتى لو كانت عقيدتك صحيحة)، فلا حق لك في وراثة تلك الأرض.

النتيجة: وراثة تلك الأرض (الأرض المقدسة) هي ميزان صلاح عباد الله (مسلمين كانوا أو يهوداً أو نصارى، الخ) لأن الله قد كتب في الزبور (الكتاب المرجع) أن تلك الأرض لن يرثها إلا عباده الصالحون.

وللحديث بقية



ماذا كتب في الزبور؟

الجزء الرابع



ماذا كتب في الزبور – الجزء الرابع

الذكر

قبل التقدم بالنقاش حول موضوع الصلاح الذي بدأنا نتعرض له في نهاية الجزء السابق والتي كانت تتصدى لتجلية بعض معاني مفردة الزبور على وجه التحديد، وخلصنا فيها إلى الزعم بأنّ الزبور الذي كتبت فيه سنّة وراثة الأرض لم يكن زبور داوود وإنما الزبور الأم (السجل) الذي انبثقت منه كل الزبر التي جاءت بها رسل الله من ربهم مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: 184]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: 25]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 43-44]

نجد لزاماً العودة إلى مفردات الآية نفسها لنرى أن الدور قد حان الآن للتعرض لمفردة الذكر في آية وراثة الأرض:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

لنطرح السؤال التالي: ما هو الذكر؟

بادئ ذي بدء، قبل الخوض في هذا النقاش نجد لزاماً القول بأننا سنقحم أنفسنا في مواضيع غاية في الخطورة، وذلك لأن أراءنا ستخالف معظم (إن لم يكن كل) اعتقادات أهل الإسلام على اختلاف فرقهم وطوائفهم، لذا فإننا نؤكد على أمرين اثنين:

1. إن ما سنزعم لا يمثل الإسلام على حقيقته، ولا ندعي أنه موجود فعلاً في كتاب الله، وإنما يمثل فقط ما فهمناه نحن من ما هو موجود في كتاب الله، فهذه آراء قابلة للتمحيص والتدقيق، قد تثبت صحة بعضها ويبين خطأ أكثرها.
2. إن هذه الأفهام تمثل عقيدتنا التي نؤمن بها، لذا فإننا لن نتخلى عنها بسهوله (رضي من رضي وغضب من غضب)، ولكننا على استعداد لتخلي عنها (لا بل والقذف بها في سلة المهملات recycle bin) متى ثبت بالدليل من كتاب الله أنها خاطئة، فجميع الأدلة التي نسوقها لترويج فكرتنا مأخوذة من كتاب الله، ولا نرضى بدليل أقل من ذلك ليدحضها. فمن يحاول أن يدحض هذه الأفكار فعليه أن يحضر دليله من كتاب الله، أما من ظن أن ما في بطون الكتب من الأحاديث التي قد لا يتفق على درجة صحتها أهل الاختصاص أنفسهم، أو من كتب تفاسير حبلى بتحريفات بني إسرائيل فذاك شأنه ولن نكلف أنفسنا عناء الرد.

أما بعد،

زعمنا رقم (1): الذكر ليس القرآن

إنّ أول ما يصار إلى نقاش حول موضوع الذكر تطرح على الفور فكرة غاصت في أعماق عقيدتنا بأن الذكر هو القرآن وأن القرآن هو الذكر، ونحن نرى أن هذا الخلط كان سبباً رئيسياً في إعاقة التفكير في الاتجاه الصحيح، وأول هذا الخلط الذي يرد على لسان الصغير والكبير، العالم والمتعلم، ما يخص الاعتقاد اليقيني عند المسلمين بأنّ الله قد حفظ هذا القرآن من التحريف والتبديل، ودليلهم على ذلك ما جاء في قول الحق في الآية الكريمة التالية التي ستحتل حيزاً بارزاً في نقاشنا هنا:

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

فعلماء المسلمين (وعامتهم على حد سواء) ما انفكوا يوماً عن الاعتقاد اليقيني بأن الله قد تكفّل لهم حفظ كتابهم بدليل هذه الآية الكريمة، ونحن نجد لزاما الوقوف طويلاً لتصحيح هذا الخطأ في الفهم (وبالتالي في العقيدة)، ولسان حالنا يقول إننا نظن أن الله لم يتكفل بحفظ القرآن الكريم. زعم خطير، أليس كذلك؟

ليس جديداً أن نذكر بأن من أصعب المهام على كاتب (من وزن الريشة - أو الذبابة على أحسن تقدير- من مثلي) أن ينبري لتصحيح خطأ إن كان شائعاً بين الناس، وتصبح المهمة أقرب إلى المستحيل (وربما المغامرة التي قد لا تحمد عقباها) إن كان ذلك الخطأ يمثل جزءً من الموروث العقائدي للناس، فـ لربما تحتاج إلى مؤلفات ومؤلفات لتصحيح خطأ بسيط نشأ عليه الناس وقبلوه دون تدبر، ناهيك أن يكون هذا الخطأ أصلاً من أصول العقيدة، ونحن نفهم مقدار الجلبة التي يمكن أن يحدثها زعمنا الذي ننوي أن نقحم أنفسنا فيه، وذلك بسبب ما يمكن أن يترتب عليه من تبعات جمّة، ولكن لمّا كنّا نتحدث عن العقيدة نفسها، فلا مجال للمجاملة أو الدوران، فعقائد الناس يجب أن تكون واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار (إلا لمن كانت التقيا أصلاً من أصول عقيدته)، ولكن لمّا كانت مهمتنا هي فهم الحقائق بغض النظر عن العواقب التي يمكن أن تؤول الأمور إليها، كان لزاماً علينا أن نضع كل المعتقدات (جلّها ودقّها) على طاولة البحث، نصدّق منها ما يصدقه قولُ ربنا، ونترك ما أدخله الناس فيها من انحرافات لا تستند إلى مرجعية موثوقة. وأول هذه المزاعم التي سنقدمها ونحاول الدفاع عنها الزعم التالي:

زعمنا رقم (1): الله لم يتكفل بحفظ القرآن

إننا نؤمن إيماناً مطلقاً أن الله لم يتكفل حفظ القرآن الكريم كما يحب المسلمون أن يروجوا لتلك الفكرة التي استحوذت على تفكيرهم قروناً من الزمن!!

عندما كنت أصرّح بمثل هذه العقيدة على جمع من الناس للمرة الأولى (حتى لو كان الحضور من أهل الاختصاص أو من هم في مهنة البحث عن المعرفة كطلبة الدراسات العليا في الجامعة التي أدرّس فيها) كانت الدنيا تقوم (ونادراً ما تقعد) فوق رأسي، ويذهب أكثرهم إلى الاعتقاد بأن هذا الدكتور قد أصابه شيء من مس الشيطان، فهو بحاجة إلى شيء من الرقيا الشرعية (وبالرغم من استعدادي لتلقي العلاج إلا أني لم أجد أحدا منهم ينبري برقياه التي ربما تسعفني للخروج من هذا الهذيان والجنون)، ويكتفي أغلبهم بالشتم من وراء الظهر (بالطبع كالعادة!!)، ويذهب أكثرهم إلى نعت هذا الدكتور تارة بالمس والجنون، وتارة أخرى بالإلحاد والكفر (وأنا لازلت لا أفهم أي منها يمكن أن ينطبق على حالتي، لكني على يقين باستحالة الاثنين معاً، فالمجنون أو الممسوس غير مكلف أصلاً ليتم نعته بالكفر، أليس كذلك؟).

لكن بالرغم من كل تلك الجعجعة التي أسمع، يعجزوا أن يقدموا لي طحيناً رداً على استفسار بسيط

لا يحتاج إلى كثير عناء وجلبة، ويتمثل الاستفسار بالتساؤل التالي: هل قال الله فعلاً أنه قد تكفل بحفظ القرآن الكريم؟

وهنا ينبري الجميع للرد بالإيجاب مستذكرين على الفور قول الحق في كتابه الكريم:

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

وهنا ما يكون مني إلا أن أرد عليهم بتساؤل أكثر بساطة من سابقه وهو: أين القرآن في الآية الكريمة؟ أي أين لفظ مفردة القرآن نفسها في الآية السابقة؟

وهنا يرد الجميع بالقول: ألا ترى أنه الذكر؟ وبكأن لسان حالهم يقول أن مفردة الذكر في الآية السابقة هي القرآن ذاته؟

لكنني لا أتوقف عند ذلك وأتابع استفساراتي: لم قال الله أنه قد حفظ الذكر ولم يقل أنه قد حفظ القرآن بصريح اللفظ؟ ولنتدبر الآية جيداً مرة أخرى:

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

فأين القرآن في الآية؟ لم لم يقل الله شيئاً كهذا:

إنا نحن نزلنا القرآن وإنا له لحافظون؟

وهنا ينهال عليّ الجميع بالاتهام بأني غير مطلع، لا أستطيع أن أميز، وليست عندي القدرة على فهم كتاب الله، وما يكون منهم إلا أن يتبرعوا لي بتفسير تلك الآية الكريمة بقولهم بأن مفردة الذكر التي وردت في الآية الكريمة تعني القرآن، فبالنسبة لهم الذكر هو القرآن، ومادام أن الله قد تعهد بحفظ الذكر فهو إذاً قد تعهد بحفظ القرآن؟ استنباط عظيم، سبحان الله! القرآن هو الذكر!

إذاً، هل يتقبل علماؤنا الأجلاء أن نستبدل كلمة الذكر التي وردت في الآية الكريمة بمفردة القرآن مادام أن المفردتين ترجعان إلى الكينونة نفسها؟ هل نستطيع أن نقرأ الآية الكريمة على النحو:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا القرآن وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

لا، لا يمكن، سيرد الجميع، لا يمكن أن تسد مفردة مكان مفردة أخرى، أليس هذا ما نشأنا عليه؟

سبحان الله لا يمكن أن تسد مفردة مكان مفردة أخرى لكن القرآن هو الذكر- ودبّر حالك!

هل هذا- يا سادة - منطق سليم؟ أم هل هي سياسة الخاوة (بالأردنية) أي بدك تقبلها هيك و... على راسك؟

لا يا سادة يجب أن نتفق أولاً عند أبسط أبجديات الحوار: إما أن تكون كل مفردة في كتاب الله مفردة مقصودة لذاتها ولا يمكن استبدالها بمفردة أخرى وهنا نجد لزاماً الإيمان بأن الذكر ليس القرآن وأن القرآن ليس الذكر، فكل واحدة منهما لها معناها الذي يجب أن يميزها عن الأخرى، أو أن نتنازل عن هذا المبدأ، ونؤمن بالافتراض القائم على أساس أن ليس كل كلمة في كتاب الله مفردة مقصودة بذاتها، ويمكن أن تسد بعض المفردات محل بعضها البعض، وهنا فقط يمكن أن نتقبل فكرة أن يكون القرآن هو الذكر أو أن الذكر هو القرآن.

أما أنا، فقد اتخذت موقفي العقائدي الذي لا يمكن أن أتزحزح عنه حتى لو وضعوا القمر في يميني والشمس في يساري (أو العكس): كل مفردة في كتاب الله مقصودة لذاتها ويستحيل أن تحل مفردة أخرى محلها، لذا فإنني أفهم أن القرآن ليس الذكر وأن الذكر ليس القرآن، فالقرآن هو القرآن والذكر هو الذكر.

النتيجة: إن صح هذا الزعم، نجد لزاماً الاعتقاد بأن الله قد تكفل بحفظ الذكر ولم يتكفل بحفظ القرآن وذلك بنص صريح اللفظ في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

ولو أنّ الله قد تكفل فعلاً بحفظ القرآن لجاء اللفظ على نحو
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا القرآن وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
ولو تكفل الله بحفظ القرآن وحفظ الذكر (أي الاثنين معاً) لورد في كتابه الكريم آيتان (وليس آية واحدة) تنص إحداهما على حفظ القرآن، وتنص الأخرى على حفظ الذكر، لأننا نعلم كم تتكرر الآيات في كتاب الله، فلقد وردت قصة موسى مثلاً مرات ومرات في كتاب الله واختلفت الألفاظ (وإن تشابهت) في معظم السياقات القرآنية (والحكمة كل الحكمة تكمن في فهم ذلك التشابه والهدف من الاختلاف).
إن هذا المنطق –على ركاكته- يوصلنا إلى السؤال الذي لا مفر منه وهو: ما الفرق بين القرآن والذكر؟ أو بكلمات أكثر دقة: ما هو القرآن؟ وما هو الذكر؟
فحتى أشد المتيقظين لخطر رشيد الجراح، المنافحين عن دين آبائهم وأجدادهم طرحوا مثل هذه التساؤلات، فكما يقول المثل الشعبي الأردني (الشمس ما بتتغطى بالغربال)، فهذا المنطق غالباً ما يثير فضول حتى من ظن في نفسه أن الله قد آتاه اليقين وقد خرط نسخة من مفتاح الجنة ووضعها في جيبه، ليدخل فيها من تطابقت آراءه واعتقاداته مع آراء صاحب المفتاح، ويذود عن حوضها من اختلف معهم في الرأي والاعتقاد. أما أن فأقول لكل من كانت في جيبه نسخة من ذلك المفتاح: أسألك الله أن لا تفتح لي الباب الذي وكلت به أنت إن أنا طرقته، لأنني ما انفككت عن الاعتقاد اليقيني بأن الذكر الذي تكفل الله بحفظه ليس هو القرآن الكريم، وهذا زعم قد لا يرضى الغالبية الساحقة من أهل الإسلام، علماء وعامة.

الذكر: ليس القرآن

دعنا نثير بعض التساؤلات التي من خلالها ربما نستطيع أن نلقي بظلال الشك على الاعتقاد بأن القرآن هو الذكر، ولنبدأ السؤال الأول من مضمون نص الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 43-44]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: 7]

تدبر – عزيزي القارئ هذين السياقين جيداً، وحاول أن تربط الأمور بعضها ببعض. الخطاب لا شك موجه إلى النبي محمد (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ)، أليس كذلك؟ وفحوى الرسالة أن الله قد أرسل قبله رجالاً فأوحى إليهم (إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ)، والطلب هو أن يتحقق النبي ومن معه من ذلك بسؤال أهل الذكر (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). وهنا نطرح التساؤل الذي أوقعني – وقد يوقعكم أنتم أيضاً في حيرة- كيف بالله يطلب من محمد وأصحابه أن يسألوا أهل الذكر؟ أليس محمد –حسب ما فهموا وأفهمونا- هو من نزل عليه القرآن (الذكر حسب ظنهم)؟ فكيف إذاً يطلب الله من محمد وصحبه في موضعين من كتابه الكريم أن يسأل أهل الذكر إن كان هو أصلاً أهل الذكر؟

ولا أفهم كيف ذهب كثير من المفسرين إلى الاعتقاد بأن أهل الذكر هم العلماء، وظنوا أن على الناس أن يسألوا العلماء عن ما لا يعلمون، ولا أخال أن هذا يروق إلا لمقدمي برامج اسألوا أهل الذكر على شاشات التلفزة لأن ذلك يعطيهم الشرعية في إصدار الفتاوى (ولكني لا زلت مصراً على موقفي القديم أن عليهم استبدال اسم البرنامج ذاك باسم جديد، وأقترح أن يسموه يسعد دينك على غرار البرنامج الناجح يسعد صباحك، ربما تكون تلك تسمية أكثر وجاهة لأنه على الأقل لن يكون مرتبطاً بفترة زمنية محددة).

إن من الصعب عليّ أن أفهم أن محمد هو من نزل عليه الذكر وفي الوقت ذاته يطلب الله من محمد وأتباع محمد أن يسألوا أهل الذكر، فلا نفهم كيف يمكن أن يطلب الله من نبيه وصحبه أن يسألوا أهل الذكر، فهل يحتاج محمد بن عبد الله أن يسأل أولئك النفر الذين يسمون أنفسهم بالعلماء؟

لا، لا، توقف يا رجل، ما الذي تقول؟ ألا تفهم أن الخطاب موجه فقط لنا نحن (عامة المسلمين) وليس للنبي؟ آه، لقد غفلت!

ولكن، كيف فهمت – يا رحمك الله- أن ذلك الخطاب موجه فقط لعامة المسلمين؟ ولم استثنيت النبي من الخطاب هنا؟ ألم يقل الله في كتابه العزيز مخاطباً محمداً على وجه التحديد:

- ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: 94]
- ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: 45]

أليس الطلب موجهاً هنا للنبي نفسه؟ لِمَ لا يكون الطلب موجهاً للنبي ومن معه في الآية التي تتحدث عن أهل الذكر؟

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 43-44]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: 7]

لنتوقف هنا لننتقل إلى سياق قرآني آخر نثير من خلاله سؤالاً آخر ربما يزيد من شكنا بأن الذكر هو القرآن نفسه، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

تأمل – عزيزي القارئ الآية جيداً، ألا تدل الآية أن الكتابة في الزبور قد حصلت بعد الكتابة في الذكر؟ فكيف يمكن أن يكون الذكر هو القرآن إلا أن يكون القرآن قد سبق الزبور؟! فحتى لو سلمنا بمنطقهم (الخاطئ) بأن الزبور هو كتاب داوود فكيف يمكن أن يكون القرآن (الذكر) قد سبق الزبور؟
والآية الكريمة التالية تثير تساؤلاً ثالثاً حول أن يكون الذكر هو القرآن نفسه:

- ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: 58]

كيف يمكن فهم أن الذكر هو القرآن وفي الوقت ذاته أن ما ينزل على محمد هو (1) من الآيات و (2) من الذكر الحكيم؟ فهل القرآن شيئان: آيات وذكر؟ من يدري!

النتيجة: الذكر ليس القرآن

إن هذه التساؤلات وغيرها تنتهي بنا إلى الاعتقاد الجازم بأن القرآن شيء والذكر شيء وآخر، وقد تعهد الله بحفظ الذكر ولم يتعهد بحفظ القرآن، وما علينا إلا أن ننبري لنبحث عن الذكر الذي تعهد الله بحفظه لنميزه عن القرآن الذي ظن معظم أهل الإسلام أن الله قد تعهد بحفظه (وهو في الحقيقة لم يفعل).

وهنا سيبادرنا الجميع بالقول: ما الفرق بين القرآن والذكر إذاً؟

وهنا يحين الوقت أن نقدم زعمنا الثاني:

الزعم رقم (2): القرآن هو ذكر (وليس الذكر)

لقد خلصنا - حتى اللحظة- إلى الزعم بأن الذكر ليس القرآن، فالذكر شيء والقرآن شيء آخر، وقد تعهد الله بحفظ الذكر ولم يتعهد بأي موضع في كتابه الكريم بحفظ القرآن، وهنا ربما تثور الدنيا ولا تقعد فوق رأس رشيد الجراح، ولكني أطلب من القارئ الكريم التريث قليلاً ليفهم ما أقول.

نعم الذكر ليس القرآن، ولكن القرآن ذكر، هذه أحجية، أليس كذلك؟ الذكر ليس هو القرآن ولكن القرآن ذكر، هل هذا كلام مفهوم؟ ألا تهذي يا رجل؟

حتى يصار إلى محاولة فهم هذا الزعم علينا أن نتدبر بعض السياقات القرآنية التي تتحدث عن القرآن نفسه، ولنبدأ بالسياق التالي:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: 48-50]
- ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: 43-44]

ما الذي يمكن أن نفهمه من هذه الآية الكريمة وخاصة قول الحق "وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ"؟ أليس هذا قول صريح في كتاب الله بأن القرآن الذي نزل على محمد هو ذكر، وإذا كان هذا القرآن هو ذكر، فهل يعني أنه الذكر بعينه؟ الجواب كلا، فما دام أن هذا القرآن ذكر (وليس الذكر)، فلا ضير أن يكون هناك ذكر غيره، فكما القرآن ذكر فالتوراة ذكر والإنجيل ذكر ، وهكذا. والدليل على صحة ما نزعم هو ما جاء في السياق نفسه مكملاً للآيات السابقة في قوله تعالى "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ"، فما بال الأقوام الأخرى إذاً؟ ألم يأتها ذكر من ربها؟ ولو تدبرنا السياق القرآني نفسه لوجدنا أنه يبدأ على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: 48]

ألا ترى –عزيزي القارئ- أن الله قد آتى موسى وهارون ذكراً كما آتى محمداً ذكرا؟

إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من هذا النقاش هو القول بأن كل كتاب أنزله الله على رسله هو ذكر (وليس الذكر) تعهد الله بحفظه، فكما أن القرآن الكريم ذكر نزل على محمد وتعهد الله بحفظه، فالتوراة ذكر والإنجيل ذكر وهكذا، ولكن ليس أي منها الذكر بعينه.

نتيجة كبيرة جداً: إن صح ما نزعم، فهذا يعني أن الله الذي تكفل بحفظ الذكر لم يتكفل فقط بحفظ القرآن (كما يحب علماء المسلمين أن يروجوا لبضاعتهم لظنهم أن الذكر هو القرآن)، بل تكفل الله بحفظ الذكر الموجود في كل كتبه التي أنزلها على رسله إلى أقوامهم. فالله قد تكفل بحفظ الذكر من القرآن (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) وليس القرآن كله، كما كان قد تكفل بحفظ الذكر من التوراة وليس التوراة كله، وتكفل بحفظ الذكر من الإنجيل وليس الإنجيل كله، وهكذا. فالذكر هو ما تكفل الله بحفظه في كل الكتب التي بعث الله بها رسله إلى أقوامهم.

ولكن توقف لحظة وانتبه لما تقول: كيف بالله يتكفل بحفظ الذكر من التوراة وقد حرّفت تلك الكتب؟ ألا ترى أنك توقع نفسك في شرك ربما يصعب الخروج منه؟

نقول كلا، لقد تكفل الله بحفظ الذكر الموجود في كل كتبه التي أرسل بها رسله إلى أقوامهم بالرغم من تحريف تلك الأقوام لما جاء به رسلهم، ولكن كيف يستقم هذا مع ذاك؟ ألا ترى أنك لا زلت تهذي؟! ربما، لكن تمهل قليلاً، وانظر ما ستؤول إليه الأمور بعد طرح سؤال واحد: ماذا نقصد نحن المسلمين عندما نقول أن الأمم السابقة قد حرّفت كتب الله التي جاء بها رسله إليهم؟ ماذا نقصد عندما نقول أن اليهود قد حرفوا التوراة أو أن النصارى قد حرفوا الإنجيل؟

ما معنى تحريف؟

يظن كثير من أبناء المسلمين (علماء وعامة) أن اليهود والنصارى قد غيروا بعض ما أنزل الله عليهم، فأصبحت كتبهم محرّفة لا ترقى أن تكون كتباً إلهية يمكن الوثوق بما هو مكتوب فيها، وأن ما هو موجود فعلاً فيها حتى الساعة لم يعد يعبر عن حرفيّة ما أنزل الله فيها على رسله، فهم يظنون أن اليهود مثلاً قد أضافوا على التوراة شيئاً لم يكن موجودا فيه وأنهم قد حذفوا منه شيئاً كان موجوداً في نسخته الأصلية التي جاء بها موسى من ربه، والمنطق نفسه يطبقوه على الإنجيل، لذا لم تعد هذه الكتب – في نظرهم- صالحة أن تسمى كتباً ربانية يحتج بما فيها، أليس هذا ما نفهم نحن عامة المسلمين عندما نتحدث عن صحة تلك الكتب التي سبقت؟

رأينا: هذا كلام عار عن الصحة لا يدعمه شيء في كتاب الله (أي القرآن)، فهذا ليس أكثر من ما فهم كثير من علماء الإسلام خطأً عن ما جاء في القرآن وليس ما ينص عليه القرآن نفسه، فنحن نظن أن القرآن – كما سيوضح النقاش لاحقاً- لا يدعم مقولة علماء الإسلام تلك إطلاقاً، بل على العكس تماماً فإن القرآن الكريم يثبت أن أهل الكتب السابقة كالتوراة مثلاً لم يحذفوا منه شيئاً ولم يزيدوا عليه شيئاً. فالتوراة هو التوراة كما نزل على موسى. كلام خطير جداً، أليس كذلك؟

ولكن توقف قليلاً، ألم يحرفوا التوراة بنص القرآن الكريم؟ كيف تقول مثل هذا الكلام والقرآن نفسه يؤكد في أكثر من موطن أنهم قد حرفوا كلام الله؟

نعم لقد حرفوا التوراة، لكنهم لم يزيدوا فيه شيئاً ولم ينقصوا منه شيئا.

كيف يكون ذلك؟ أي كيف يستقيم الزعم أنهم حرفوا التوراة لكنهم لم يزيدوا فيه شيئا ولم ينقصوا منه شيئا؟

إن هذا ما سنحاول تبيانه في هذه الصفحات: أهل الكتب السابقة لم يضيفوا فيها شيئاً لم يكن

موجود فيها ولم يحذفوا شيئا كان موجوداً فيها ولكنهم مع ذلك حرفوا تلك الكتب!

الدليل

لكي يصبح الكلام مفهوماً فإننا نرى الحاجة أولاً إلى التميز بين مفردتين مهمتين وردتا في كتاب الله عن هذا الموضوع وهما مفردة التحريف ومفردة التبديل التي غالباً ما خلط الناس (العامة وأهل العلم على حد سواء) بينهما، ولعلنا نجزم أن الغلط الذي وقع فيه علماء المسلمين (وأوقعوا الناس فيه) قد نبع من عدم قدرتهم على التميز بين هاتين المفردتين، وسنحاول في السطور التالية التميز بينهما لنرى الفرق الذي ربما يحدثه مثل هذا الفهم في عقائد الأمة بأكملها.

وقبل الخوض في تفاصيل الفرق بين الأمرين لابد من البوح بأن موقفنا العقائدي الذي سيتمحور حوله جلّ النقاش التالي يتمثل بما يلي: الأمم سابقة حرّفت كلام الله لكنّها لم تبدل كلام الله، وشتان بين التبديل والتحريف

التبديل: الأمم السابقة لم تبدّل كلام الله

التبديل هو – في نظرنا- إحلال شيء مكان شيء آخر. ولنستعرض جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن التبديل من كتاب الله، ثم نرى ما الذي يمكن أن نفهمه من معنى التبديل.

فها هم بنو إسرائيل يطلبوا من نبيهم تبديل شيء بشيء آخر:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

وها هم يتبدلون الكفر بالإيمان:

- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: 108]
- ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: 181]
- ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: 211]

وها هم يتبدلون الخبيث بالطيب:

- ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: 2]

والله لا شك مبدل جلودهم التي أهلكتها النار بجلود أخرى ليذوقوا العذاب:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: 56]

والله لا شك يبدل مكان السيئة بالحسنة:

- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: 95]

والله يتوعد أن يستبدل قوم غيرهم:

- ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: 39]

ويستنكر الله عليهم أنهم قد بدلوا نعمة الله كفراً:

- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: 28]

والله – لا شك- مبدل الأرض غير الأرض في ذلك اليوم الرهيب:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: 48]

والآيات الكريمة كثيرة تؤكد في مجملها على معنى إحلال شيء جديد محل شيء قديم، وتدعو القارئ أن لا يمر عليها مرور الكرام بل إلى تدبرها جميعاً ليرى وجاهة ما نزعم:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]
- ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 81]
- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55]
- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: 70]
- ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: 11]
- ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: 23]
- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: 52]
- ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: 16]
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ

ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ [غافر: 26]

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ [محمد: 38]
- ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ [الواقعة: 61]
- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾ [التحريم: 5]
- ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ [القلم: 32]
- ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ [المعارج: 41]
- ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ [الإنسان: 28]

دقق – عزيزي القارئ – في جميع السياقات السابقة جيداً لتجد بنفسك أنّ التبديل يعني إحلال شيء جديد محل شيء قديم، فهم يطلبون استبدال الذي هو أدنى (الثوم والبصل، الخ) بما كان لديهم من خير (المن والسلوى)، والله يتوعد نساء النبي الحاليات بنساء جدد خير من السابقات، والله قد أبدل القوم جنتين ذواتي خمط بجنتيهما القديمات، وهكذا.

والآن لنطرح التساؤل الكبير: هل هناك نص في كتاب الله يثبت لنا أن أهل الكتاب قد بدّلوا كلام الله؟ أي أنهم قد أدخلوا شيئاً جديداً مكان شيء سبقه. نحن نتحدى أن يجد القارئ لكتاب الله نصاً صريحاً يبين أن القوم قد بدّلوا كلام الله. إن جل ما يمكن أن نجده حول هذا التحدي هو قول الحق:

- ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ [الفتح: 15]

ولو تدبرنا هذه الآية جيداً لوجدنا أن جلَّ ما كان لدى القوم (أي قوم وليس فقط اليهود والنصارى) هو الإرادة بتبديل كلام الله (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)، ولكن هل يعني ذلك أنهم قد بدّلوه فعلاً؟ كلا، وألف كلا، فإرادة القيام بعمل ما لا يعني أن الفعل قد حصل (للتفصيل حول موضوع الإرادة ندعو القارئ إلى مراجعة مقالتنا تحت عنوان مقالة في التسيير والتخيير)

وهنا ربما يرد من أراد الفهم (وليس من يريد الجدال) بالتساؤل التالي: لِمَ لَمْ يبدل القوم كلام الله؟ إي ما الذي يمنعهم من القيام بذلك؟

نقول أن الجواب على مثل هذا التساؤل قد ورد في كتاب الله أكثر من مرة، ولنمعن التفكير بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ [يونس: 64]
- ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ [الأنعام: 15]

- ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]
- ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: 27]
- ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29]

ألا تدلنا هذه الآيات الكريمة على واحدة من سنن الله الكونية: لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، فمن يستطيع أن يبدل كلامات الله بعد هذا التعهد الذي قطعه الله على نفسه؟!

والآن – يا سادة- أليس التوراة والإنجيل –مثلاً- كلمات من الله أنزلها على رسله؟ فإن كانت كذلك، فمن يستطيع إذاً أن يبدل كلمات الله تلك؟!

الجواب: لا يستطيع كائن من كان أن يبدل كلمات الله، لأن الله وحده هو من يستطيع تبديل كلماته:

- ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل: 101]

فحتى النبي لا يستطيع القيام بذلك إلا بوحي من الله (وليس من تلقاء نفسه):

- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]

لكن ربما يستطيع البشر أن يبدلوا قولاً (إن لم يكن كلام الله نفسه) كما في قوله تعالى:

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 59]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 162]

ولكن حتى تبديل هذا القول (لاحظ الفرق هنا، فالتبديل ليس لكلمات الله ولكن لقول ما) كانت نتيجته وخيمة (فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ). وسنناقش لاحقاً الفرق بين القول والكلام.

النتيجة: أهل الكتاب لم يبدلوا كلمات الله (التوراة والإنجيل) لأنهم – ببساطة- لا يستطيعون فعل ذلك، فلا أحد (كائن من كان) يستطيع تبديل كلمات الله مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ

﴿٦٤﴾ [يونس: 64]

تساؤلات

إن هذه النتيجة التي توصلنا إليها ربما تدعمها بعض التساؤلات التي يمكن استنباطها من كتاب الله نفسه ولنبدأ بالتساؤل الأول:

⇐ (1) إذا كانت تلك الكتب السابقة قد بُدِّلت (بمعنى التبديل الذي يرد في كتاب الله وهو إحلال شيء محل شيء آخر) كما يزعم المسلمون، فلم يطلب الله من نبيه أن يسأل من أنزلت عليهم تلك الكتب ليثبت من خلالها صدق دعوته؟

- ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ [يونس: 94]
- ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ [البقرة: 41]

ألا يقرأ هؤلاء كتبا محرفة – كما يفهم ذلك علماء المسلمين؟ فكيف بالنبي أن يسأل (كشهادة) من يقرأ كتاباً محرفاً ليثبت من خلالها صدق دعواه؟ هل تقبل أصلاً شهادة من أناس كهؤلاء مادامت معرفتهم صادرة من كتب قد تم تبديل ما فيها؟ وكيف بالله يتحداهم أن يأتوا بكتبهم ليتلوها ليبين من خلالها صدق رسالة محمد؟ وهل تبين صدق رسالة محمد إن استندت على شهادة أناس مصدر معلوماتهم غير صحيحة؟

- ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ [آل عمران: 93]

وكيف يشهد الله لهم بأن التوراة فيها حكم الله إن كانوا فعلاً قد غيروا ما فيها؟

- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ [المائدة: 43]
- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: 44]

والآن لنستعرض الآيات الكريمة من كتاب الله التي تثبت أن القرآن الكريم يصدق ما في الكتب التي بين أيديهم:

- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ [البقرة: 40-41]

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾ [البقرة: 91]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]
- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران: 81]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ [النساء: 47]

⇐ (2) ألم يشهد الله أن عيسى بن مريم قد جاء ليصدّق ما بين يديه من التوراة:

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

أم أن ذلك يعني أن مسألة التبديل بدأت فقط بعد قدوم عيسى بن مريم؟ فهل كانت التوراة غير مبدلة طوال تلك الفترة التي تفصل بين عيسى وموسى وبدأ التبديل بعد قدوم عيسى؟ أي هل بدأ التبديل فقط بعد رسالة عيسى؟

⇐ (3) لنصدق – لفترة قصيرة- رواية المسلمين بأن التوراة قد بدّلت، فماذا نفعل بقول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

ألم يعلّم الله عيسى بن مريم التوراة كما علّمه الإنجيل؟ ألا يعني ذلك أنه حتى لو سلمنا بمقولة

المسلمين أن التوراة قد تم تبديلها (أو تبديل جزءاً منها) قبل مجيء عيسى بن مريم ألا تدل الآية السابقة أن عيسى بن مريم قد عاد بعلم التوراة كما جاء بعلم الإنجيل (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)؟ فلقد جاء عيس بن مريم بعلم ذلك الكتاب من المصدر الرباني الذي نزل على موسى، فالله نفسه الذي كان قد علّم موسى التوراة وهو نفسه من عاد ليعلم عيسى بن مريم التوراة، وهذا يعني أن عيسى بن مريم قد جاء بالنص الصحيح الذي كان عند موسى نفسه، فمتى إذاً بدأ التبديل (الذي أفنيتم الأجيال وأنتم تروجون له) يا علماء الإسلام؟

⇐ (4) وكيف نفهم قول الله أنه أنزل هذا الكتاب على محمد ليصدق ما بين يديه من الكتاب إن كان ذاك الكتاب أصلاً مبدلاً؟

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

وكيف بالله يطلب من هؤلاء القوم أن يقيموا التوراة والإنجيل إن كان أصلاً كتاباً مبدلاً؟

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: 68]

وكيف بالله يطلب منهم الإيمان بما نزل على محمد لأنه يصدق ما بين أيديهم؟

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: 47]

⇐ (5) وكيف يستقيم المعنى أن القوم قد بدلوا التوراة ولا زال الله يشهد عليهم في كتابنا العزيز أن كتابهم لازال مكتوب فيه خبر ذلك النبي الأمي؟ فلو كان القوم قد بدلوا لحذفوا خبر ذلك النبي الأمي من كتابهم، أليس كذلك؟

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]

وهنا سيرد الجميع بالقول: وأين هو إن صح ما تزعم؟

الجواب: هو موجود في كتابهم، فهم لم يبدلوه (فهو لازال موجوداً حتى الساعة) ولكنهم حرّفوه.

وسنناقش في مقالتنا اللاحقة –بحول الله– معنى التحريف الذي اقترفته أيدي أهل الكتاب، لنرى أننا نحن المسلمين قد فعلنا الفعلة نفسها.

وربما نكتفي أن ننهي هذا الجزء من المقالة بتدبر الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [الإنسان: 23]

راقب الآيات جيدا لنطرح عليك السؤال التالي: على من نزل القرآن؟ وعلى من نزل الذكر؟
جواب: ففي حين أن القرآن قد نزل خصيصاً على محمد، جاء الذكر غير متحدد بنبي بعينه، فلماذا؟
رأينا: لأن الذكر قد نزل على جميع أنبياء الله، ولكن لماذا؟
رأينا: لأن للذكر مهمة خاصة لابد لكل نبي أن يمتلكها، فما هي؟
افتراء من عند أنفسنا: إنه التبيان للناس ما نزل إليهم من ربهم:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

وللحديث بقية



ماذا كتب في الزبور؟

الجزء الخامس



ماذا كتب في الزبور – الجزء الخامس

لقد توصلنا في الجزء السابق إلى الزعم بأنّ الأمم السابقة لم تبدّل كلام الله (ولكنها حرّفت كلام الله)، وهذا يعني – حسب فهمنا للنص القرآني- أنها لم تدخل في كتب الله التي أنزلت شيئاً لم يكن موجوداً فيها أصلاً، ولم تحذف منها شيئاً كان موجوداً فيها، لأن التبديل كما زعمنا سابقاً هو – حسب فهمنا للنص القرآني- إحلال شيء جديد مكان شيء قديم سبقه، وهذه الفعلة لم تكن الأمم السابقة قادرة على اقترافها حتى لو كانت الإرادة بذلك متوافرة عندهم، والسبب في ذلك كما حاولنا تبيانه سابقاً هو أنّ الله قد اختط سنة كونية لا يستطيع أحد (كائن من كان) أن ينقضها، وتلك السنة الكونية هي ما جاء في أكثر من موضع من كتاب الله عن انتفاء التبديل لكلماته:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]
- ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: 115]
- ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]
- ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: 27]
- ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29]

لهذا، فإننا نظن أنه يجب علينا أن نتوقف - نحن المسلمين- عن اتهام الآخرين بتهمٍ باطله، يكذّبها قرآننا نفسه، فنحن لم نجد في كتاب الله آية واحدة تدل على أن الأمم السابقة قد بدّلت كلام الله، أو أن أحداً من الرسل قد جاء ليعيد الكلمات التي بدلت إلى ما كانت عليه قبل التبديل، فقد كان جل ما جاء به عيسى بن مريم - على سبيل المثال- ليصدق ما بين يديه من التوراة، فلو كانت تلك التوراة قد بدّلت لما صدّقها ابن مريم بنفسه:

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]

ولا تقل أهمية عن ذلك مهمّته في تصويب الاختلاف بينهم:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣﴾ [الزخرف: 63]

فالناس لم يختلفوا على أن هذا جزء من التوراة أو أن هذا ليس جزءا من التوراة، بل اختلفوا على نفس النص المكتوب عندهم جميعاً، فهم قد اختلفوا ولكنهم لم يبدّلوا، وليس أدلّ على الاختلاف – كما سنرى لاحقاً- من اختلاف الفرق الإسلامية فيما بينها حول النص القرآني ذاته، فهل يعني أنه عندما تختلف الفرق الإسلامية فإنها تستند إلى نصوص قرآنية مختلفة؟ كلا، فهم يستخدمون نفس النص القرآني إلا أنهم مع ذلك يختلفون فيه (وسنتناول أمثلة عديدة على مثل هذا الاختلاف لاحقاً).

إن ما يهمنا من القول هنا هو أنه لم نجد دليلاً واحداً في كتاب الله على أنّ الأمم السابقة (كاليهود والنصارى) قد بدّلت كلمات الله، ومن يجد مثل ذلك الدليل، فليسعفنا به على الفور، وسيرى بأننا لن نكون له شاكرين فقط بل سنتخلى عن موقفنا هذا على الفور.

وهنا نجد من الضروري الاستطراد قليلاً حول ماهية تلك السنة الكونية التي اختطّها الله بنفسه، فالله كما تشير الآيات الكريمة السابقة قد اتخذ على نفسه عهداً بأن لا تبديل كلماته "لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ"، فقد يتوقف البعض ليتساءل عن السبب من وراء ذلك، ليطرح السؤال التالي: لِمَ تعهد الله بأنْ لا تبديل لكلماته؟

الجواب: إننا نظن أن الحكمة من وراء ذلك تكمن في ما ورد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٦٥﴾ [النساء: 165]

نعم إننا نظن أن السبب هو "لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"، فنحن نظن أنه لو تم تبديل كلمات الله – بالمفهوم الذي ما انفك أهل الإسلام يروجون له- لكان في ذلك للناس حجة على ربهم، ولكن كيف؟

رأينا: إننا نعلم أن رسل الله كانوا يأتون ويجيئون أقوامهم بكتب من ربهم على فترات من الزمن، فلم يكن هناك رسول في كل جيل (وسنناقش لاحقاً سبب وجود خمسة أنبياء مثلاً من عائلة واحدة: إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف، ومرور فترات طويلة من الزمن – بالمقابل- دون رسول)، فالفترة الزمنية التي تفصل بين رسل الله غالباً ما تكون طويلة، فهناك مئات (بل آلاف) من السنوات تفصل بين موسى وعيسى مثلاً، وبين عيسى ومحمد، وهكذا. والآن تخيل نفسك أنك كنت تعيش في فترة زمنية سبقت

عيسى بن مريم (لنقل) بمائة عام مثلاً، ولم يكن يتوافر عندك إلا التوراة، فعيسى لم يأتي بعد، ولم يكن هناك الإنجيل أو القرآن، وكل ما هو متوافر بين يديك حينئذ هو التوراة فقط، فالسؤال يكون: ما ذنبك أن يصلك ذلك الكتاب وقد تبدّلت كلماته؟ وكيف بك ستتعرف على الكلمات الحقيقة للإله؟ والآن تخيل نفسك في وقت الحساب عند ربك، ألا ترى أنه سيكون لك بذلك حجة على ربك؟ ألا ترى أنك ستقول له: لِمَ لَمْ تتكفل بحفظ التوراة لي كما تعهدت بحفظ القرآن (كما يزعم المسلمون) لغيري؟ ألست أنت ربي كما أنت رب أتباع ديانة من تعهدت لهم بحفظ القرآن؟

ثم، ألا ترون - يا سادة- أن الظن بأن الله قد تكفل للمسلمين بحفظ كتابهم على وجه التحديد (ولم يتكفل بذلك للأمم الأخرى كما يزعم المسلمون) فيه اتهام مبطن للإله بالانحياز إلى أمة دون أخرى؟ فما الحكمة في أن يتكفل الله بحفظ كتاب محدد بعينه دون كتبه الأخرى التي أنزلها على رسله؟ وإن كان ظنكم هذا صحيحاً، فما العيب إذاً في الزعم اليهودي بأن الله قد ميزهم عن بقية شعوب الله فكانوا هم – حسب معتقداتهم- شعب الله المختار؟ ألا يحق لكل أمة أن تبحث لنفسها عن مكانة خاصة في ذلك الانحياز الإلهي (إن صح ما تزعمون)؟

لقد درج جل الفكر الديني الإسلامي على الاعتقاد بأن السبب من وراء ذلك يكمن في أن هذا الكتاب (وهو القرآن) هو آخر كتب الله على رسله، لذا كان لابد من هذا التعهد الإلهي حتى لا تضيع كلماته. نقول أن هذا كلام وجيه لو أنه كان يتسم بالعدالة، فليس من العدالة بمكان أن يسكت الإله الآلف السنين تضيع خلالها كلماته، ثم ما يلبث أن يعود بعد فترة من الزمن لغيّر تلك الإستراتيجية (السنة الإلهية) التي كان متّبعة منذ بدء الحياة على الأرض. إننا نفهم أنّ هناك عشرات الآلاف من السنين التي سبقت مجيء محمد، وسبقت نزول القرآن الكريم، فهل من المعقول أن تكون سنة الله طوال تلك الفترة الطويلة هي السكوت على تبديل كلماته ثم ما يلبث أن يقرّر في فترة تاريخية معينة أن يغير هذه السنّة لتكون على نحو أن لا تبديل لكلماته التي جاءت في القرآن فقط؟

ثم، لنصدقكم - يا سادة - قليلاً لنطرح عليكم التساؤل المثير التالي: لِم لَم يتخذ الله قراره بأن يكون موسى أو عيسى مثلاً هو آخر رسل الله، وعندها يتعهد الله بحفظ كلماته منذ ذلك الوقت؟ فنحن لم ننسى بعد أن الفترة الزمنية التي تفصل محمد عن عيسى عليهما (وعلى جميع رسل الله) أفضل السلام لم تتجاوز الستة قرون من الزمن (أي حوالي 600 سنة)، فهل هذه فترة طويلة يصعب على الإله أن يحفظ خلالها كلماته؟!

ثم، لِمَ لَمْ يتعهد الله بأن يكون أول كتاب أنزله هو آخر كتاب أنزله (أي ينزل نفس الكتاب على جميع رسله) ويتعهد عندها أن يحفظ ذلك الكتاب منذ اليوم الأول؟ هل يصعب على الإله فعل ذلك؟ فمن تعهد أن لا تتغير كلماته التي أنزلها في القرآن منذ أن نزل على محمد حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يعجزه أن يتعهد بحفظ كتاب واحد منذ بدء الخلق وحتى قيام الساعة، ألا يكون في ذلك عدل لجميع شعوب الأرض؟ هل ستنبري عندها أمة معينة لتقول أنها شعب الله المختار الذي ميّزه الله عن باقي شعوب الأرض كما يفهموا هم معنى الاختيار؟ وهل ستنبري أخرى لتقول أن الله قد قدّم لهم ولده فداء وتطهيراً لهم من دون شعوب الأرض الأخرى كما يفهموا هم معنى التطهير؟ وهل ستتقدم أمة ثالثة لتقول أن الله قد تعهّد لهم بحفظ كتابهم من دون كتب الله التي أنزلها على الأمم الأخرى كما يفهموا هم معنى الحفظ؟ ألا ترون يا سادة أن كل منكم (يهوداً ونصارى ومسلمين) يحاول أن يستحوذ على الإله لنفسه دون غيره، ويكأن الإله ابن خالة لهم؟ يا سبحان الله! إله يقول عن نفسه أنه رب العالمين ورب الناس جميعاً ينتهي به المطاف أن يكون رب لهؤلاء دون هؤلاء! لا لشيء إلا لأنهم هم المميزون! من يدري!!!

لا والله، ذلك لا يكون من شأن إله واحد أحد عادل فرد صمد، بل هذا ما ظنوا هم في الإله الذي يرغبون أن يعبدوه. إن ذلك لا يكون إلا من كانت عقيدته على النحو الذي يصورها ربنا في كتابه الكريم:

- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: 42-44]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: 23]

نعم، لقد اتخذ كل منهم إلهه هواه، وبذل كل منهم قصارى جهده ليعظّم ما عنده، ويستحقر ما عند الآخرين، لا لشيء، وإنما ليقنع نفسه أنه هو على صواب وغيره ضال مضل، فلا اليهود تعترف للنصارى بشيء، ولا النصارى تعترف للمسلمين بشيء، ولا المسلمون يعترفون للنصارى واليهود بشيء، وقد صوّر القرآن الكريم هذا النهج المنحرف في التفكير في كتابه الكريم أحسن تصوير:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١١٣﴾ [البقرة: 113]

ولا يظنن أحد بأن هذا ما فعلته اليهود والنصارى فقط، فلو أمعنا التفكر في بقية الآية الكريمة لوجدنا أنّ هذا نهج كل الذين لا يعلمون "كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ".

ولم يتوقف – في ظننا- هذا النهج المنحرف في التفكير عند الناس على التنافس القائم بين الديانات السماوية المعروفة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، بل دخل إلى الفرق المتناحرة في الديانة الواحدة، حتى أصبح ديدن كل فرقة منهم يتمثل في أنهم هم الفرقة الناجية وغيرهم ليس أكثر من منحرف ضال عن جادة الصواب.

وسنحاول أن نحصر جلّ النقاش التالي على ما فعلته الأمم السابقة، لنرى بأم أعيننا أن ما فعلته الأمم السابقة قد فعلناه نحن أتباع الإسلام الذين يحملون القرآن وظنوا أن الله قد تكفل لهم – دون الأمم الأخرى- بحفظ كتابهم.

وهنا سيطرح الجميع علينا التساؤل التالي: ما الذي فعلته الأمم السابقة إن لم تكن فعلاً قد أدخلت وحذفت وبدّلت ما أنزل الله عليهم؟

الجواب: لقد حرفت الأمم السابقة كلام الله.

وهل هناك فرق بين التبديل والتحريف؟

نعم، هناك فرق كبير جداً، فالتبديل هو – كما ذكرنا سابقاً- إحلال شيء جديد مكان شيء قديم سبقه، أما التحريف فهو قصة أخرى، وهو ما سنتناوله فيما تبقى من مقالتنا هذه.

ما هو التحريف؟

لننطلق في نقاشنا الذي نحاول من خلاله الوصول إلى معنى التحريف من الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]

لنثير التساؤل التالي: كيف يشهد الله بأن فريق منهم كان يسمع كلام الله ثم يحرفونه (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ)؟ ولا ننسى كذلك أن الآية الكريمة تؤكد أن هذا التحريف كان يحصل بعد أن يعقلوه (مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، فهو تحريف عن علم (وليس عن عدم دراية أو عن جهل)، أليس كذلك؟

إن هذه الآية الكريمة تجلب إلى انتباهنا حقيقتين كبيرتين جداً حول التحريف الذي حصل للكتب السابقة وهما:

1. أن التحريف لم يكن صنيعة كل من اتبع تلك الديانات وإنما هو صنيعة فريق منهم (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ)

2. أن التحريف لم يكن عن جهل وإنما كان مقصوداً لذاته بعد أن كان من يقوم بتلك الصنعة على علم (**ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**).

والآن لنطرح السؤال التالي: من الذي كان يقوم بالتحريف إذاً؟

الجواب: إن صحّ ما نزعم فإن التحريف كان صنيعة أهل العلم في تلك الديانات، أي العلماء.

ولو أمعنا التفكير في كل الآيات التي تتحدث عن تحريف الكتب السابقة لوجدنا أن الذي كان يقوم بتلك الصنعة هم أهل العلم فقط، أو (لنقل) من وضعوا أنفسهم في موضع المدافع عن الدين، وهم لا شك من يسمّون أنفسهم بأهل الشريعة، الذين تنقاد لهم العامة انقياد القطيع للراعي:

- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: 46]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]

إذاً، فهم أصحاب القرار الديني الذين يوجّهون الناس على أخذ هذا وترك ذاك "**يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا**"، إنهم أهل الفتوى الدينية، ولا أخال أن العامة يستطيعون التصدي لمثل تلك المهمة، لأنّه لابد أن تكون لمن يقوم بمثل هذا العمل الخطير شرعيّة وقبول عند الناس، فآية الله على الأرض- أو من هو في مكانته كالقسيسين والرهبان والحبر الأعظم ومن هم من هيئة كبار العلماء- هو فقط من يستطيع القيام بتحريف كلمات الله.

ولكن توقف يا رجل، ما الذي تقول؟ أتق الله! وهل يحرف أهل الشريعة كلام الله؟ وكيف يفعلون ذلك؟

فنرد بالقول: تمهل لترى بنفسك، ولكن بشرط أنْ نفهم أولاً معنى تحريف الكلام، أي كيف يتم تحريف الكلام؟

إنّ تحريف الكلام –حسب فهمنا للنص القرآني- لا يتم بتبديله، ولكنه يتم بطرق أخرى: أولها استبدال المعاني وليس استبدال الألفاظ، وثانيها إخفاء ما يسبب الإشكال عند الناس. وهذا ما سنناقشه تباعاً في الحال.

التحريف باستبدال المعاني وليس باستبدال الألفاظ

قد لا يختلف الكثيرون في أنّ واحدة من أهم مهام أهل الشريعة هي تبيان معاني الألفاظ في الكتب المقدسة للناس، فعلماء المسلمون يفسرون ألفاظ القرآن لأتباع هذه الديانة، وهكذا يفعل علماء اليهود والنصارى، وربما جاءت الحاجة إلى ذلك بسبب ما وقع الناس فيه من إشكالية في فهم النص الديني، فلا يستطيع كل الناس فهم النص الديني كما يجب من تلقاء أنفسهم، عندها يلجئون- مضطرين- إلى من يسمون أنفسهم أهل الشريعة لتبيان المعاني للألفاظ الموجودة في الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل والقرآن. وهنا تبدأ قصة التحريف الأولى. خصوصاً عندما يقوم كل من تصدى لهذا العلم بإعطاء رأيه دون دليل عليه من الكتاب نفسه. ولنقدم بعض الأمثلة على ذلك.

فلو ذهبنا إلى أهل الدين لنسألهم عن مفردة في كتاب الله لوجدنا كل فرقة وكل طائفة تفهمها وتحاول أن تقنع الناس بفهمهم ذاك، فلو ذهبنا إلى أهل الإسلام وسألناهم عن معنى البقرة التي وردت في قصة موسى مع بني إسرائيل لما عدمنا فرقة منهم أن تقول أن البقرة هي عائشة زوج النبي، ولكن لو سألناهم عن دليلهم على ذلك لما وجدناهم يقدمون دليلاً على زعمهم ذاك من كتاب الله نفسه، بل جلّ ما يفعلوه هو أن يرددوا على أسماعنا بأن هذا ما قاله فلان وذاك ما قاله علاّن (من مشايخهم الذين تلقوا العلم عنهم)، فيا سبحان الله: البقرة هي عائشة عند بعضهم (رضي من رضي وغضب من غضب)، وهي بالتأكيد ليست عائشة عن الفرق الأخرى، أليس هذا تحريف لكلام رب العالمين؟

ولو سألنا عن ما يرغب أن يسميها أهل الإسلام بحادثة الإفك، لوجدنا فرقة منهم تقول أن آيات التبرئة من الإفك قد نزلت بحق عائشة، بينما لا تنفك فرق أخرى أن تقول أنها نزلت بحق ماريا القبطية، ولو سألنا كل طرف عن دليله، لما عدم كل طرف أن يحشد عشرات الأدلة على قوله، ولكن الحقيقة التي لا يمكن المجادلة فيها هي أن أدلتهم تخلو جميعاً من دليل واحد من كتاب الله نفسه، أليس هذا تحريف لكلام الله؟

ولو سألتهم عن معنى مفردة الأهل في قوله تعالى:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

لقالت فرق منهم أنّ ذلك بيت النبي محمد باستثناء زوجته عائشة، فالأهل بالنسبة لهم هم أبناء النبي وبناته وأحفاده وحتى خالاته وعماته وأبناء عمومته (خصوصاً فرع العباس) إلاّ عائشة، سبحان الله!، ولكن ألم تقرءوا – يا سادة- قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: 32]

وألم تقرءوا - يا سادة- في كتاب الله أن موسى قد سار بأهله من مدين، فمت يا ترى كان برفقته إن لم تكن زوجته التي تزوجها في مدين:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]

فإذا كانت مفردة الأهل لا تشمل الزوجة، فلم يضطر الإله أن يذكر زوجة لوط بصريح اللفظ، لقد كان الأولى بالإله – إن صح قولكم- أن يقول لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ وكفى، فالزوجة –حسب فقهكم- يشمل الجميع إلا الزوجة، أم هي فقط عائشة على وجه التحديد؟! أليس ذلك تحريف لكلام الله؟

ولو سألنا جميع علماء الفرق الإسلامية سؤالاً كهذا: لماذا تزوج الرسول بذاك العدد من النساء في مخالفة واضحة لما فهموه من النص الديني لتعدد الزوجات الذي يقتصر على العدد أربعة؟ لقالوا تلك خصوصية للنبي، وفي الوقت ذاته هم يعلّمونا ليل نهار أن الخير كل الخير في إتباع سنة محمد، وذلك بأن لا نترك صغيرة ولا كبيرة فعلها النبي إلا ونفعلها، لم إذاً تمنعونا – يا سادة- من أن نتزوج بمثل العدد الذي تزوج به محمد؟ هل عندكم من دليل من كتاب الله يستند إليه قولكم، أم هو فقط ما ورثتموه عن مشايخكم؟ أليس هذا تحريف لكلام الله؟

ولو سألناهم عن عمر نوح لقالوا أنه عاش 950 عاماً في الوقت الذي نجد أن الله يقول في كتابه:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

ولو استدركتهم بالقول أن الله لم يقل أن نوح قد عاش 950 عاماً، بل ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولا يجوز أن نطرح العام من السنة، لردوا على الفور: وما الفرق؟ ولرأيت في وجوهم الحيرة وكأنهم يقرؤون الآية الكريمة لأول مرة بعد أربعة عشر قرناً من التنزيل، أليس هذا تحريفاً لكلام الله؟

ولو سألنا غالبية علماء المسلمين (وخاصة أهل السنة والجماعة الذين يروجون للتمسك بحرفية الدين) عن معنى مفردة رجالاً في قوله تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾ [الحج: 27]

لما ترددوا في القول أن ذلك يعني راجلين (أي يمشون على أرجلهم)، فنقول لهم: كيف لنا – إن صح زعمكم- أن نحج بالسيارة أو الطائرة أو الباخرة إذاً؟ ألا يدعونا الله إلى الحج راجلين، فما بالنا نركب كل وسائط النقل من الدابة حتى الطائرة؟ وكيف بمحمد نفسه (وهو من نزلت عليه هذه الآية) يحج البيت راكباً على دابته إن كان فعلاً ما تقولونه صحيحا؟

والأهم من ذلك، دعنا ننظر إلى خارطة العالم: أليس هناك قارات بأكملها تفصل بينها وبين جزيرة العرب محيطات من الماء، فكيف بأولئك القوم سيقدمون إلى الحج راجلين (ماشين على أقدامهم)؟ أليس هذا تحريف لكلمات الله؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن التحريف – يا سادة- لا يكون بتغير اللفظ أو استبداله، بل بترك اللفظ على ما هو عليه وإشغال الناس بمعناه الخاطئ الذي أراده أهل العلم أن يكون في النص الديني، وليس المعنى الصحيح للفظ الحقيقي الموجود في كتاب الله كما أراده الله.

فلو سألنا الغالبية الساحقة من أبناء المسلمين عن معنى مفردة عاقر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥﴾ [مريم: 5]

لظنت الغالبية الساحقة من أبناء المسلمين أنها تعني المرأة التي لا تنجب، ولو استدركتهم بالسؤال

التالي: فما **العقيم** إذاً كما ترد في الآية الكريمة التالي:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 29]

لرأيت الدهشة بادية على وجوهم وكأنهم يقرؤون تلك الآيات للمرة الأولى في حياتهم. نعم، بعد أكثر من 1400 سنة من ترداد هذه الآيات صباح مساء لازلنا نعجز عن إجابة أسئلة بسيطة جداً مثل هذه، ولكن لماذا؟

الجواب: لأننا انشغلنا عن ألفاظ القرآن نفسها بتحريفات من يظنون أنفسهم أنهم أهل العلم مصداقاً لقوله تعالى:

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

لقد قال لنا نفر من العلماء أن هذا يعني كذا، وذاك يعني كذا، فصدّقناهم وأنزلنا كلامهم درجة من القداسة التي أصبح من المتعذر معها أن نضعها مرة أخرى للنقاش، فمن يستطيع البوح أن ابن عباس قد أخطأ أو أن أبن عمر قد جانب الصواب أحياناً؟ ومن يجرؤ أن يدعي أن واحداً من أهل البيت قد كانت طبائعه أقرب إلى طبائع أهل الأرض؟ ومن يستطيع البوح أن هناك – ولو من الناحية النظرية- مجالاً متوافرا في هذا الدين لمذهب خامس يختلف ويضيف إلى مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأبن حنبل؟ فلو فعل واحد من أبناء المسلمين وأدعى شيئاً من ذلك، لنصّبوا من أنفسهم آلهة على الأرض، وأصدروا عليه الحكم الأزلي بالخلود في نار جهنم (هذا إن كنت تستحق عناء المحاكمة أصلاً كما فعلوا لرشيد الجراح وأمثاله).

الدليل

وقد يقول من يريد الحجة (وليس المجادلة): وأين الدليل على كلامك بأن التحريف هو حمل الكلام على غير معناه الصحيح مع الاحتفاظ باللفظ؟

الجواب: نقول إننا يمكن أن نستنبط ذلك من قول الحق في كتابه الكريم:

- ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: 16]

فالمتحرف للقتال لا يترك ساحة المعركة وإنما يحاول أن يغير طريقته في القتال، فهو عندما يجد أن الأعداء قد يتغلبوا عليه إن هو أصر على المكوث في وضعه ذاك وهو ولم يعد قادراً على مواجهتهم من هذا الجانب وبالحال التي هو عليها، ما يكون منه إلا أن يتحرف للقتال، أي يحاول المواجهة بطريقة أخرى، فيصبح التحريف أقرب إلى المناورة والمراوغة، وهكذا يفعل سادتنا ومشايخنا ممن يسمون أنفسهم بالعلماء، فهم ما أن يجدوا أن ما نشئوا عليه من أفهام عشرات بل مئات السنين لم يعد يخدم مصالحهم، وأصبح فجوة واضحة في موقفهم، لا يترددون قيد أنمله في أن يطرحوه وراء ظهورهم، وينتقلوا إلى الهجوم من جديد ولكن بأدوات وأسلحة وطرق جديدة.

ولو قرأنا آية أخرى من كتاب الله لوجدنا أنها تصوّر حالهم أحسن تصوير:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج: 11]

فالذي يعبد الله على حرف لا ينفك أبداً عن تغيير مواقفه حسب الظروف والأحوال، فإن كان خيراً رأيت منه كل إمارات الاطمئنان والثبات، وما أن تصيبه فتنة من الله حتى ينقلب على عقبيه على الفور، وكأن خيراً لم يصبه قط. أليس هذا هو التقلب في الأهواء حسب الأحوال؟ أليس هذا هو التحريف.

تحريف الكلام بإخفائه وعدم إظهاره للناس

أما الطريقة الثانية في تحريف الكلام فتكون بإخفائه وعدم إظهاره على الناس، وقد أكد الله أن هذه الفعلة الشنيعة كانت من صنيعة أهل الكتاب:

- ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]
- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَـٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

نعم، لقد كانت تلك سياسة متبعة عند بني إسرائيل: إخفاء كثير من الكتاب (وليس تبديل الكلمات)، فالكلمات الأصلية موجودة في الكتاب ولكن قلّ من يعلمها من الناس بسبب محاولة علماؤهم الدءوبة على إخفاءها، فهم يروجون فقط لما ترغب أنفسهم أن يروجوا له، ويخفون ما لا يريدون للعامة أن يطّلعوا عليه.

إننا نرى في قول الحق **مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ** دليل واضح على أنهم لم يبدلوا ما في الكتاب (أي لم يزيدوا عليه ولم ينقصوا منه شيئاً)، وذلك لأنك لا تستطيع أن تقوم بإخفاء شيء إن لم يكن موجودا أصلاً، ولنستطرد قليلاً في محاولة منا فهم معنى الإخفاء كما يرد في النص القرآني، ولنستعرض الآيات الكريمة التالية لنرى أنه عندما تخفي شيئاً فلا بد أن يكون موجوداً أصلاً:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

فكيف يمكن أن تخفي صدقة إن لم يكن هناك صدقة أصلاً؟

والإخفاء يتطلب استخدام وسيلة لتغطية الأمر، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَـٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

فالمرأة تخفي زينتها، ولا بد من استخدام حاجز أو وسيلة لتغطية الأمر، فالمرأة تستخدم جلبابها (أو ثوبها أو خمارها، سمّه ما شئت) لإخفاء زينتها.

نستطيع أن نزعم – بناءً على ما فهمناه من هذه السياقات القرآنية- أن في استخدام مفردة الإخفاء لابد من توافر أمرين اثنين: أولهما أنك عندما تريد أن "تخفي"، لا بد أن يكون هناك شيء لكي تخفيه، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤﴾ [الأحزاب: 54]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]

وثانيهما استخدم وسيلة لتغطية ذلك الأمر،وتتمثل تلك الوسيلة بالحاجز الذي يحول دون الوصول إلى الشيء المخفي كغطاء المرأة:

- ﴿...وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

وقد يتم إخفاء الشيء في النفس:

- ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]
- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]
- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

أو في الصدر:

- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]
- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

نعم، لقد أخفى علماء اليهود والنصارى في أنفسهم وفي صدورهم علم ذلك الكتاب عن العامة، فليس كل ما في صدورهم وأنفسهم مدار نقاش ومعرفة لعامة الناس. وقد احتلت هذه السياسة "القذرة" حيزاً كبيراً في تفكير كثير ممن نصّبوا من أنفسهم علماء أهل الإسلام تحت ما رجوا له بفقه "إثارة الشبهات"، فما يدور بينهم قد لا ينقل الكثير منه إلى العامة، ويكأن لسان حالهم يقول: قولوا للناس هذا ولا تقولوا للناس ذاك، ويكأن دين الله بالنسبة لهم شيء وللعامة شيء آخر. من يدري!

لا بل فقد وصلت الجرأة بالكثير الكثير منهم إلى نعت من يحاول أن ينبش في قضية شائكة (لأنهم قد عجزوا عن فهمها) بأنه شخص يثير الشبهات حول الدين، ولا أظن أنهم وجدوا تهمة لإلصاقها بشخص كرشيد الجراح وأمثاله أفضل من تهمة إثارة الشبهات، فهو (ومن على شاكلته) في رأيهم شخص يثير الشبهات حول دين أبائهم وأجدادهم، لذا فهو شخص مارق كافر، غالباً ما يكون –في نظرهم- منفذاً لأجندة الأعداء المتربصين بهذا الدين. وكما قال أحد مشايخهم في برنامج تلفزيوني (يرعاه المتكسبين باسم الدين كما يتكسب غيرهم بقنوات الدعارة والخلاعة) إن هذا الدكتور الذي في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة اليرموك (بجوز مش أنا!) لم يعهد مثله في عشيرته الطيبة التي يعرفها هو خلال حياته العسكرية الطويلة التي صاحب خلالها أناس طيبون من هذه العشيرة، ولكنه – يضيف العالم الجليل- لا زال لا يفهم كيف يخرج مارق مثل هذا الزنديق (يقصد دكتور اللغة الإنجليزية) من هذه العشيرة الطيبة! إذاً، الدين عندهم - يا سادة – مرتبط بالعشيرة. هل ترون أن فكر هذا الشيخ الجليل يختلف عن فكر سادة قريش الذين جهزوا الجيوش لمحاربة دين محمد؟!

فإذا ما نبش رشيد الجراح وقال تعالوا نتدارس ما يشذ عن قواعدكم اللغوية الموجودة في كتاب الله كما في الآيات التي سنذكرها بعد قليل مثلاً، قالوا أن هذا الشخص إنما يقصد إثارة الشبهات حول الدين. فهم قد شقوا عن صدور العالمين، وعلموا أن هؤلاء الناس (من مثلي) ينطبق عليهم قول الحق:

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

لكنهم هم بالطبع من لهم الحق بالنبش بما يريدون وترك ما لا يريدون لأنهم من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله:

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

ولكن هل سننتظر طويلاً - يا سادة حتى تنفجر- حناجركم بالعلم الذي تخرجوه لنا عن ما هو موجود في كتاب الله ولم يوافق القواعد اللغوية التي اختطها أجدادكم كما في الآيات التالية مثلاً:

- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: 81-82]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤٧﴾ [آل عمران: 147]
- ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾ [الأنفال: 34-35]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾ [الجاثية: 25]

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: 114]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 10-11]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]
- ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: 61]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: 52]
- ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾

[طه: 63]

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: 10]
- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: 69]
- ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: 74]
- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: 59]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ

لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل: 12]

- ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: 32]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: 6]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]
- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]
- ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: 17-23]

وسنفرد في مقالاتنا اللاحقة – بحول الله- مساحة واسعة لهذه الآيات الكريمة ليرى العامة من الناس أنه –على غير مما يزعم كثير من علماء المسلمين- لازال هناك مجالاً للتفكر بهذه الأمور من زاوية جديدة، زاوية تبيّن لنا الدِّقة المتناهية في إحكام هذا الكتاب، وليس تخاريف من ظنوا أنهم قد امتلكوا ناصية الحقيقة فوضعوا قواعد كلام أبائهم وأجدادهم وأجبروا النص الإلهي للخضوع لها، فبدل أن يكون القرآن الكريم حكماً على كلام أبائهم وأجدادهم، جعلوا كلام أبائهم وأجدادهم حكماً على كتاب الله – وشتان بين هذا وذاك

إن ما يحزن له هو أن العامة من الناس قد صدّقوا أكذوبتهم تلك (فقه إثارة الشبهات) حتى وصل الأمر إلى درجة أن مجرد طرح جزئيات محددة للنقاش (حتى لو كان في قاعة الدرس) يثير تساؤلات حول انتماءاتك العقائدية وولاءاتك الدينية، نعم، لقد اشترى العامة بضاعة العلماء الفاسدة، وظنوا أنها الحق بعينه، ولم يستطيعوا أن يدركوا شيئاً واحداً يستجليه سؤال واحد (قد لا يغفل عنه الطفل ما دام أنه ليس واقع تحت تأثير مخدراتهم الدينية بعد): لم هي كذلك؟ هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ فمهما كانت القضية العقائدية التي تقلقك لا تتردد أن تسأل عنها، فليس هناك حد لما يمكن أن يسأل عنه، وهذا الاعتقاد نابع من عقيدة مفادها أنه ما دام أن هذا ما جاء من عند ربنا فيستحيل أن يكون عبثاً، وتكمن مهمتنا في البحث عن السبب (وليس التستر على المشكلة)، فمن كان عنده علم فليخرجه لنا، ومن لم يكن عنده علم فالأفضل (له وللأمة) أن يصمت ويترك المجال للناس للتفكر والتدبر، بدل أن يحاول جهده أن يخفي الأمر عن الناس ويحاول التستر عليه (ويكأن لسان حالهم يقول أن هذه أو تلك مثلبة في ديننا من الأفضل أن لا

يطّلع عليه الناس). فنرد على من يحمل مثل هذا الاعتقاد بالقول: ليس هناك في شريعة الله ما يوجب التستر عليه لأنه دون أدنى شك هو الحق بعينه.

إن مجرد إخفاء المشاكل –يا سادة – لا يحلّها، لأنه إن لم ينبش فيها رشيد الجراح فسينبشها غيره، وستجدون أنفسكم عاجلاً أم آجلاً أمام حرج كبير خاصة من الناس الذين صدّقوكم فترة طويلة من الزمن، وقد اكتشفوا في لحظة من الزمن مقدار التعمية (والتظليل) الذي أوقعتموهم فيه طوال كل تلك السنين والأعوام. فالله سيحق الحق بكلماته رضي من رضي وغضب من غضب. إن الاعتراف بالعجز أفضل ألف مرة من التستر عليه، فالنعامة التي تغمس رأسها في التراب (ظانّة أنها قد نجت) لن تستطيع الإفلات من مفترسها.

فلو سألتهم عن سبب زواج النبي بذاك العدد من النساء في حين أن شريعته التي جاء بها (حسب فهمهم بالطبع) تقصر الزواج على أربع نساء في الوقت الواحد، لعدوا ذلك سؤالاً من باب إثارة الشبهات، ولو سألتهم عن معارضة الرسول لعلي من الزواج على فاطمة لخرجوا لك بألف تبرير وتبرير لا تقنع في مجملها من يدافع عنها، ولو سألتهم عن سبب عدم إبرام الرسول عقد النكاح على مارية القبطية بالرغم أنها هي من أنجبت له وخاصة الذكور من الأبناء لظنوا أنك تهاجم الرسول محمد. إنّ هؤلاء القوم لا يريدون أن يفهموا، إنهم ظنوا أنهم قد فهموا وأوقفوا قطار المعرفة عند محطات أسيادهم وأهل العلم منهم.

استراحة قصيرة

سأحاول أن أقدم في هذه العجالة مثالا واحد يبين كيف ينقاد العامة من الناس لأهل العلم دون تدبر ولا تفكر، فقد شاهدت على إحدى الفضائيات التي تتبنى الفكر الشيعي صلاة المغرب (ولا يظنن أحد أني أهاجم هذه الطائفة دون تلك، فكلهم (سنة وشيعة) بالنسبة لي في الهم شرق، فأنا أرى أنهم جميعاً قد ضلوا وأضلوا، أصابوا أحياناً وأخطئوا كثيرا، وأنا أحاول إتباع الحق حيثما كان، فـ والله - الذي لا إله سواه- لو علمت أن الحق في أدغال الأمازون لما ترددت لحظة في اللحاق به).

المهم في هذه الحادثة أني شاهدت ذلك الخطيب وقد أمّ الآلاف المصلين في صلاة المغرب، وكان كلما انتقل من هيئة في الصلاة إلى هيئة أخرى يقول اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، فإذا ركع قال اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، وإذا رفع من الركوع قال ذلك، وإذا سجد قال مثل ذلك، وإذا رفع من السجود قال مثل ذلك، وهكذا ، حتى فرغ من صلاته.

وهنا تساءلت: هل يا ترى كان النبي محمد يصلي على تلك الشاكلة؟ أي هل كان يفعل ذلك في صلاته؟ فأنا - والله – أريد أن أصلي كما كان يصلي محمد نفسه. وليس كما يصلي هذا الشيخ أو ذاك.
فلو وقف أحد من بين ذلك الحشد الرهيب وتجرأ على طرح هذا السؤال: هل فعلاً هكذا كان يصلي محمد؟ فما الذي ستؤول إليه الأمور حسب معتقدات تلك الفرقة؟ وكيف سينتهي الحال بمن تجرأ على طرح هذا السؤال؟

لا شك أنه يثير الشبهات، ولكن يا سادة، دعنا نستخدم ما وهب الله لنا من نعمة التفكر، ولنرجع إلى الوراء إلى عصر النبي محمد لنتخيل الأمر الذي يمكن أن يكون أقرب إلى الحقيقة:
محمد رجل أمي من قريش يدعو الناس جميعاً (عرباً وعجماً) إلى تصديق دعوته والإيمان بالله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام، أليس كذلك؟
والآن لنتخيل أن النبي كان يصلي بالناس الذين اتبعوه كصلاة شيخنا من تلك الطائفة الشيعية: كلما انتقل من هيئة في صلاته إلى هيئة أخرى كان يقول اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، فماذا تتوقع أن تكون ردة فعل من خلفه وهم من قبائل العرب جميعاً (وبعضهم من غير العرب أصلاً)؟ هل تتوقع أن

يتقبلوا أن تنخفض رؤوسهم وتنحني قاماتهم للصلاة على محمد وعلى آل محمد (من بني هاشم أو حتى من بيت عبد المطلب)؟ ألن يخرج من بين ذلك الجمع من يقول لمحمد أننا قد صدقناك وصلينا معك لنعبد إلهاً واحداً وليس لنبجل بيتاً من بني عبد المطلب؟ هل تظن أن قبائل العرب (وكل منها يعتز بقبيلته أكثر من اعتزازه بآلهته التي كان يعبدها) ستقبل دعوة محمد إن كانت فعلاً على تلك الشاكلة؟! أين ذهبت عقول الناس؟!

ثم، ألا يحق لنا – نحن العامة- أن نسأل أهل العلم من أين جاءوا أصلاً بمفردة "آل البيت" هذه؟ هل فعلاً وردت في كتاب الله؟ أم هل هي ما جادت به عقولهم العظيمة؟ من يدري!!!

(سنحاول أن نفرد لهذه الجزئية مقالة خاصة بحول الله وتوفيقه، لذا فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً).

إن هذه دعوة للعامة للصحوة من تأثير "المخدرات الدينية" التي حقنها من يسمون أنفسهم بعلماء الأمة في عقولنا، وهي والله أشد خطراً من المخدرات المادية التي تحقن في أجسامنا، وهي دعوة لنبذ هؤلاء الشرذمة ممن يسمون أنفسهم بالعلماء والتنبه إلى خطرهم، فهم ينصبون من أنفسهم وكلاء لله على الأرض، يستأثر كل واحد منهم بفرقة من الناس (أو لنقل بجزء من القطيع) ما ينفك عن حقنها بما يراه هو من الدين ويخفي عنها ما لا يراه هو من الدين، ليقودها كما يقود الراعي القطيع إلى المرعى، لا بل فإن القطيع إذا ما ورد المرعى تركه الراعي يأكل مما يحب ويرغب، وهؤلاء الشرذمة من العلماء لا يتركون الناس يأكلون مما يحبون، بل يقدموا لهم الوصفة الجاهزة بما ينفعهم وما يضرهم.

والله إني لاستغرب أن يسمي هؤلاء الناس أنفسهم بالعلماء وهم الذين ما انفكوا عن أكل أموال الناس بالباطل، فهذا واحد منهم يبيع ملايين النسخ من كتاب كتب فيه بعض آيات القرآن وحرّفها (وكتابه لا يسوى الحبر الذي كتب فيه)، وهذا آخر لا يتسع الوقت لبرامجه المدفوعة مسبقاً على الفضائيات، فهو ينتقل من واحدة إلى أخرى (ورقم حساب شيخنا الجليل في البنك معروف لدى كل تلك الفضائيات)، وهذا آخر يخرج على الناس ليصدّق خبر أن تكلفة بناء بيته قد تجاوزت الملايين، وهذا آخر يخرج على الناس فتوى من النوع المضحك المبكي: قطرة الأذن تفطر الصائم (وأنا لا أعرف إن كانت تحميلة الشرج تفطر الصائم في فقه وفقه أبيه من قبله) وما هي إلا أيام معدودة وقد أصبح أحد وزراء حكومة رشيدة جديدة ستقود الأمة إلى بر الأمان في هذا المنعطف التاريخي (كحكومات المملكة الأردنية الهاشمية المتعاقبة بالطبع)، وهذا...، وهذا...، والقائمة لا تنتهي. لكننا في النهاية لا نجد أفضل من أن نذكرهم جميعاً بقول الحق سبحانه:

- ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: 79]

وللحديث بقية



ماذا كتب في

الزبور؟

الجزء السادس



ماذا كتب في الزبور – الجزء السادس

لقد خلصنا في الجزء السابق إلى الزعم بأن الأمم السابقة لم تبدّل كلام الله ولكنّها حرّفت كلمات الله، وزعمنا كذلك أن التحريف لا يعني استبدال اللفظ بلفظ آخر، لأن ذلك – بمفردات القرآن الكريم- يعني تبديلاً وليس تحريفاً، والله نفسه قد تعهد في أكثر من موضع في كتابه الكريم بأن لا تبديل لكلماته:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]

وإنما قد يتم التحريف (والذي هو من صنعة العلماء فقط) بطريقتين وهما:

(1) المراوغة في معاني الألفاظ نفسها، فاللفظ نفسه يحمله كل واحد منهم على نحو ما يحب ويرغب دون دليل على زعمه من كتاب الله يثبت ما ذهب إليه، وعندها يحدث خلطاً في الألفاظ يصعب على الناس التمييز بينها، فمن من أهل العلم (والعامة على حد سواء) يستطيع التفريق بين **الذكر والقرآن والفرقان** مثلاً؟ فلا أظن أنّ أهل الإسلام قد استطاعوا الخروج بتعريفات واضحة مميزة لكل واحدة من هذه الألفاظ التي غالباً ما حملوها على الإجمال وليس التفصيل، فكثير منهم يظن أنّ القرآن والذكر والفرقان هم جميعاً الشيء نفسه، وهذا بالضبط ما نفهم من معنى التحريف الذي يتحدث عنه النص القرآني، فالتحريف يكون بحمل الألفاظ على بعضها البعض دون تمييز يبيّن الاختلاف،

(2) إخفاء تلك الكلمات باستخدام وسيلة لتكون حاجزاً بين الناس ومعرفة كلمات الله على حقيقتها، وقد يكون ذلك الحاجز وسيلة ملموسة كتلك التي تستخدمها المرأة لتخفي زينتها (وهو ما فعله أهل الإنجيل عندما لم تكن النسخ من الكتاب متوافرة عند العامة حتى ضاع النص الأصلي) ، وقد يكون الإخفاء بالنفس أو الصدر، وذلك بعدم البوح به على العامة والتستر عليه بدوافع عدم إثارة الشبهات حول الدين. ففي صدور أهل العلم كثير من الإشكالات التي يعلمون أنها لازالت غير مفهومه (لهم ولغيرهم)، ولكنّهم بدل أن يظهروها للناس ليتفكروا بها، ما انفكوا يبذلون قصارى جهدهم للتستر عليها، ويكأنهم بفعلتهم هذه يستطيعون حجب المعرفة عن الناس وإلى الأبد. هيهات!

في حين أننا نجد الله يتحداهم أن يأتوا بالتوراة ليتلوها ليبين كذب دعواهم في قوله تعالى:

- ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]

لا نجد مثل هذا التحدي خاصاً بالإنجيل، فالله لم يتحداهم بأن يأتوا بالإنجيل، والسبب في ذلك – في رأينا- أن أهل الإنجيل قد أضاعوا النص الأصلي للكتاب، وقدموا تحريفاتهم (أي المعاني التي فهموها هم) للنص الأصلي بلغات أخرى غير لغة الإنجيل الأم وهي الآرامية.

وخلصنا إلى الزعم أنّ كل هذه الوسائل في التحريف لم تكن حكراً على الأمم التي سبقتنا كاليهود والنصارى (وإن كانوا هم السبّاقون في ذلك)، فلقد وقعنا - نحن المسلمين- في الفخ نفسه الذي أوقع علماء بني إسرائيل العامة من الناس فيه، فهم قد حرّفوا التوراة والإنجيل ، وبالمنطق نفسه فقد حرّف علماء المسلمين القرآن وإنْ لم يبدّلوا كلماته. فلا أحد (يهودياً كان أو نصرانياً أو مسلماً) يستطيع تبديل كلمات الله، فالله قد تعهد بحفظ كلماته (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)، ولكن أهل العلم – على وجه التحديد- يستطيعون تحريفها. وقد فعلوا.

وليس أدل على معنى التحريف - الذي نفهمه من كلام الله - من تحريف علماء المسلمين للآية الكريمة التي نتحدث عنها وهي الآية التي ورد فيه التعهد الإلهي بحفظ الذكر من الكتاب:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

فعلماء الإسلام لم يبدلوا كلمة الذكر بكلمة القرآن، فلا نجد نسخة واحدة من المصحف تستخدم لفظة القرآن بدل لفظة الذّكر في هذه الآية الكريمة، ولا نجد أحداً من علماء المسلمين يقرأ الآية بلفظة القرآن بدّل لفظة الذكر، ولو فعل طالب في الصف الخامس ج ذلك، لأوقفه كل طلاب صفه (وإن كان المعلم غارقا في هموم ديونه المتراكمة وبصيص الأمل في الزيادة المرتقبة التي يتناقل الناس أخبارها منذ ثلاث سنين خلت) ليصححوا له الخطأ الذي وقع فيه، ولذكّروه جميعاً بأن اللفظ هو الذّكر وليس القرآن. ولو أخطأ من يَؤم الناس في الصلاة فتلفظ بمفردة القرآن بدل الذّكر عندما كان يقرأ هذه الآية الكريمة في الصلاة الجهورية، لتعالت الأصوات من الصف الأخير قبل أن يتمكن من يتولى من يقف وراء الإمام مباشرة لتصحيح الخطأ الذي وقع فيه الإمام.

ولكن بالرغم من هذا الالتزام العظيم بالنص كما يجب، فإن علماء الإسلام قد حرّفوا كلمة الذّكر عندما زعموا أنها القرآن نفسه في جميع تأويلاتهم وتفسيراتهم للآية الكريمة (انظر تفاسير العلماء المسلمين

جميعاً لهذه الآية الكريمة)، فغرسوا تلك الفكرة في أذهانهم وفي أذهان كافة أبناء الإسلام، حتى لم يعد هناك من يشكك في فهمهم ذاك (إلا رشيد الجراح وقلة ممن يغرّدون خارج السرب).

وقد كان جلّ ردنا عليهم في الجزء السابق يتمحور حول إثارة التساؤل التالي: إذا كان الذّكر هو القرآن نفسه (كما تزعمون)، وإذا كان تعهد الله بحفظ الذّكر هو تعهده بحفظ القرآن (كما تظنون)، فلم لم يستخدم الله اللفظ نفسه للحديث عن حفظ القرآن وحفظ الذّكر؟ وما الفائدة من استخدام لفظ الذّكر على وجه التحديد للحديث عن الحفظ؟ إن عدم التحريف – في رأينا- يعني التوقف عن التلاعب بمعاني الألفاظ، فالذّكر هو الذّكر والقرآن هو القرآن، ولا يجب الخلط، فهما كينونتان مختلفتان وإن تشابهتا كثيرا؟ فصحيح أن التفاح يشبه البرتقال في الشكل والحجم والصنف و...الخ، إلا أنّهما شيئان مختلفان: هذا تفاح وذاك برتقال، وشتان بين الاثنين.

وهذه النتيجة تعيدنا إلى لبِّ النقاش الذي بداءناه حول قول الحق في كتاب الكريم:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

لنخرج بالنتيجة التالية التي تختلف بشكل جذري عن كل ما هو سائد في الفكر الديني الإسلامي منذ قرون طويلة من الزمن: الذكر ليس القرآن والله لم يتعهد بحفظ القرآن ولكنه تعهد بحفظ الذّكر فقط

الدليل

لو دققنا في الآيتين الكريمتين التاليتين لوجدنا فرقاً جوهرياً قلما وقف عنده أهل الدراية من علماء المسلمين، والفرق يتمثل في التنبه إلى من أنزل الله عليه الذكر ومن أنزل عليه القرآن:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [الإنسان: 23]

لاحظ أنه في حين أن النص القرآني يبين صراحة أن القرآن قد أنزله الله على محمد بشكل خاص لوجود حرف الجر على (كما يحب أهل العربية أن يسموه) في قوله " **عَلَيۡكَ**"، لم يأتي صريح اللفظ كذلك في الآية التي تتحدث عن تنزيل الذكر. لنخلص إلى الافتراء الخطير جداً الذي هو بلا شك من عند أنفسنا بالقول: في حين أن القرآن نزل خصيصاً على محمد لم يكن الذكر كذلك، فالذكر ليس – في ظننا- خاصاً بنبي ولا رسول بعينه.

فما هو الذكر؟

إنه رسالة الله التي أنزلها على جميع رسله، لذا فإننا نتجرأ على الزعم بأنّ الذّكر موجود في القرآن، والذّكر موجود في التوراة، والذّكر موجود في الإنجيل، والذّكر موجود في زبر الله جميعاً التي أرسل بها أنبياءه إلى عبادة كافة. وقد تعهد الله بحفظ كلماته التي أنزلها على عباده من خلال رسله منذ الأزل في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

فالقرآن الكريم ليس عبارة عن ذكر فقط، بل هو ذكر وآيات:

- ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾ [آل عمران: 58]
- ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ [يس: 69]

فمحمد قد نزل عليه الذّكر:

- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: 6]

ونزل ذِكر مثله على موسى وأخيه هارون، والمقارنة معقودة في قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠﴾ [الأنبياء: 48-50]

فالذي نزل على محمد هو ذكر خاص به وبقومه:

- ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: 43-44]

لذا، نجد لزاماً التوقف هنا للتأكيد على فكرة ردّدناها مراراً وهي أن هذه التجاوزات (أو التحريفات) لم تتوقف عند مفردة الذكر فحسب، بل تعدّتها إلى كل مفردات الكتاب تقريباً، فلو سألت علماء المسلمين عن الفرقان لقالوا لك أنّه القرآن الكريم، ولكنّك إن ذكّرتهم بالآية الكريمة التالية، للجو في طغيانهم يعمهون:

- ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾ [البقرة: 53]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الأنبياء: 48]

ولوقعوا وأوقعوا غيرهم (خاصة من يصدّقهم دون تدبر) في حيرة لا يستطيعون بعدها أن يبيّنوا للناس كيف أن الفرقان هو القرآن في الوقت الذي يقول الله بصريح اللفظ في كتابه أنه قد آتى موسى الفرقان؟! من يدري!

إنّ ما يهمنا أن نخلص إليه هنا هو القول بأن إبدال لفظةٍ بلفظةٍ مشابهة لها عند تفسير المفردات القرآنية المقصودة لذاتها هو التحريف بعينه، فعندما تزعم أنّ القرآن هو الذّكر أو أن القرآن هو الفرقان،

ولا تبيّن للناس الفرق بينهما، فإنك بفعلتك تلك تحرّف الكلم عن مواضعه أو من بعد مواضعه مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]

ولكن السؤال الذي لم نجب عليه بعد هو: إنْ صح ما تزعم – يقول بعضهم- بأن القرآن شيء والذّكر شيء آخر وإن تشابها كثيراً، فما الفرق بينهما؟ فما هو الذّكر؟ وما هو القرآن؟ وكيف يختلف الأول عن الثاني؟

رأينا

القرآن: هو ما نزل على محمد فقط

الذّكر: هو ما نزل على جميع رسل الله (بمن فيهم محمد)

الدليل

أما الدليل على أن القرآن الكريم قد نزل على محمد بشكل خاص فإننا نقدم السياقات القرآنية التي ورد فيها ذكر لمفردة القرآن ونتحدى أن يجد أحد فيها إشارة إلى أن الكلام يخص غير النبي محمد وقومه، فقد وردت مفردة القرآن بصيغة التعريف (القرآن):

- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: 185]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]
- ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: 19]
- ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: 111]
- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس: 37]
- ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]
- ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]
- ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل: 98]
- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء: 9]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾ [الإسراء: 41]
- ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء: 45]
- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء: 46]
- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾ [الإسراء: 60]
- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54]
- ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾ [طه: 2]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114]
- ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النمل: 1]
- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: 6]
- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ [النمل: 76]
- ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾ [النمل: 92]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾ [القصص: 85]
- ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨﴾ [الروم: 58]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31]
- ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣﴾ [يس: 1-3]
- ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]
- ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [الزمر: 27]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]
- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: 29]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]
- ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: 1]
- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 17]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر: 22]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾ [القمر: 32]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾ [القمر: 40]
- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾ [الرحمن: 1-2]
- ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]
- ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل: 4]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [الإنسان: 23]
- ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢١﴾ [الانشقاق: 21]

وقد وردت كذلك بصيغة التنكير (قرآناً):

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2]

- ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ [الرعد: 31]
- ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه: 113]
- ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر: 28]
- ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3]
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]
- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: 3]
- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن: 1]

وجاءت بصيغة التنكير (قران)

- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]
- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: 61]
- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: 1]
- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: 78]
- ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ [يس: 69]
- ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 17-19]

- ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [البروج: 21-22]

قد يثير البعض هنا التساؤل حول هذه الآية الكريمة ظانين بأنها تدل على حفظ القرآن، فنرد بالقول كلا، لأن كلمة محفوظ في هذه الآية تصف اللوح (فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ) بدليل الحركة الإعرابية وهي الكسر، فلو كانت كلمة محفوظ تصف القرآن لكانت مرفوعة لأن الصفة تتبع الموصوف بالحركة، فلو تدبرنا الحركة الإعرابية على مفردة نحاس في قوله تعالى:

- ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمن: 35]

لاستطعنا أن نفهم أنها غير معطوفة على مفردة النار ولكنها معطوفة على مفردة شواظ، فلو كانت معطوفة على مفردة نَارٍ لجاءت مجرورة ولأصبح المعنى على نحو أن الله سيرسل عليهم شواظ من نار وشواظ من نحاس، ولكن لما جاءت مرفوعة كان لزاماً أن نفهم أنها معطوفة على مفردة شُوَاظٌ ولأصبح المعنى على نحو أن الله سيرسل عليهم شواظ من نار من جهة ونحاس من جهة أخرى، فهناك نحاس ولكن ليس هناك شواظ من نحاس.

إنّ جل ما يهمنا في هذا المقام هو الفهم بأن هذا القرآن قد نزل على محمد فقط، وربما يصدق ظننا هذا ما جاء في الآية الكريمة التالية التي نظن أنها قاطعة الدلالة بأن القرآن قد نزل خصيصاً على محمد:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۝٢٣﴾ [الإنسان: 23]

وقد جعله الله قرآناً عربياً على وجه التحديد، فقد كان في الكتاب الأم ولكن الله نقله من صورته الأصلية في ذلك الكتاب (الذي لا ريب فيه) إلى صيغة جديدة بلسان عربي:

- ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: 3]

ولكن الكثيرون سيثرون التساؤل التالي: فأين الذّكر إذاً (إن كان مختلفاً عن القرآن – كما تزعم)؟

الجواب: إن كل ما نزل على محمد من ربه هو قرآن ولكن ليس كل ما نزل على محمد هو ذكر، فالذكر جزء من القرآن وليس القرآن كله، وذلك الجزء من القرآن (الذي هو ذكر) هو ما تكفل الله بحفظه فقط، ولكن كيف؟

إن هذا الزعم يعيدنا إلى فهم ماهيّة الذكر، لنطرح السؤال التالي: كيف يختلف الذّكر عن القرآن؟

إن الجواب على هذا التساؤل موجود - في رأينا - في السياقات القرآنية التي سنتناول بعض منها في الحال.

أولاً، لنقرأ قول الحق في الآية الكريمة التالية، علّنا نخرج ببعض الاستنباطات التي قد ترشدنا – بحول الله- إلى فهم الحقائق كما يجلّيها النص القرآني نفسه لا كما نحبها نحن أن تكون، قال تعالى:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

- ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: 104]

إن أبسط ما يمكن أن ترشدنا إليه هذه الآية الكريمة هو الهدف من إنزال الذّكر، فالله يقول لنبيه بأنه قد أنزل إليه الذّكر (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) والهدف من ذلك التنزيل هو (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)، أليس كذلك؟

ألا تثير هذه الآية الكريمة التساؤل التالي: كيف بالذّكر أن يبيّن للناس ما نزّل إليهم؟ فما الذي نزّل إليهم حتى يقوم الذكر بتبيانه؟ أليس هو القرآن؟ أليس ما نزّل إليهم هو القرآن؟ إذاً ألا نفهم بأن الذكر هو تبيان للقرآن؟

لنتذكر دائماً هذه الغاية من تنزيل الذكر، ولننطلق منها لنتدبر بعض الجزئيات في هذه الآية الكريمة، فـ لربما يساعدنا فهم هذه الجزئيات على فهم النص الأوسع بشكل أكثر دقة.

الجزئية الأولى

لنبدأ بقول الحق وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، فمهمة محمد من تلقي الذكر من ربه لم تكن لإبلاغ الناس بشيء جديد لم يسبق ورود خبره، وإنما كانت " لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ".

ولو تدبرنا النص أكثر لـ ربما فهمنا أن مهمة محمد بعد أن نزل إليه الذكر لم تكن محصورة بتبيان الأمر للمسلمين وإنما للناس " لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ"، سواءً كانوا مسلمين أو نصارى أو يهود أو حتى ممن لا يؤمنون بهذه الديانات المعروفة. فلو كان التبيان المكلف به النبي في هذه الآية الكريمة خاصاً بالمسلمين لـ ربما جاء النص على نحو لتبين لهم ما نزل إليهم أو لتبين للذين أمنوا ما نزل إليهم، وهكذا.

وبهذا الفهم ربما يبين لنا وجاهة السبب الذي من أجله يوجّه الله نبيه وأتباعه إلى سؤال أهل الذكر:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: 43]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: 7]

فكما نحن أهل الذكر، فهم أيضاً أهل الذكر، وكما يجب علينا أن نسألهم، فعليهم كذلك أن يأخذوا مما عندنا لأنّه كما يبيّن لنا فهو كذلك يبيّن لهم ما نزّل إليهم. فهذه رسالة سماوية واحدة، مصدرها واحد، وهدفها واحد، لذا فهي تفسر بعضها بعضا. وقد أخفقوا هم في فهم الذّكر بالضبط كما أخفقنا نحن في فهمه:

- ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: 71]

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ [الفرقان: 18]
- ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان: 29]
- ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥﴾ [الشعراء: 5]
- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ [يس: 11]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ [فصلت: 41]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: 44]
- ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠﴾ [الأنبياء: 50]
- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الأنبياء: 48]
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ [الأنبياء: 24]
- ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ [الأنبياء: 2]

فحتى قوم نوح جاءهم نبيهم نوح بذكر من ربهم:

- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ
عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن
رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن
جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 59-64]

وكذلك كان الحال بالنسبة لقوم عاد:

- ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ
وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي
ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ

يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٧٢﴾ [الأعراف: 65-72]

إن خلاصة القول هو أن الذكر الذي بين أيدينا لا يخص المسلمين فقط وإنما هو للعالمين أجمعين، فقد جاء قوم محمد ذكر من ربهم كما جاء الأقوام السابقة ذكر من ربهم، فأصبح الذكر عالمياً:

- ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [ص: 87]
- ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ [القلم: 52]

النتيجة: الذكر هو رسالة ربانية أنزلها على جميع عباده وتكفل بحفظها

الجزئية الثانية

ولو أمعنا التفكر في جزئية أخرى في هذا النص وهي اختلاف اللفظ بين تنزيل الذكر وتنزيل القرآن لوجدنا أن الله يستخدم لفظتين في هذه الآية الكريمة وهما **أنزل** للحديث عن الذكر (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) و**نزّل** عند الحديث عن القرآن (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).

وقد تطرقنا في مقالة سابقة لنا عن الفرق بين **أنزل ونزّل**، وزعمنا الفهم أن الفرق قد يكمن في الطريقة، فأنزل تعنى أن الشيء قد جاء كجملة واحدة، بينما قد تعني نزّل أن النص قد جاء على أكثر من مرحلة. ولمّا كان الذكر هو موجود في الزبور (الكتاب السجل) من قبل أن ينزّل القرآن وقد أنزله الله على أقوام كثيرين قبلنا، فقد جاء دفعة واحدة لا يمكن تجزئته، بينما لما كان القرآن خاصاً بهذه الأمة فقد جاء تنزيله على دفعات:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾ [الفرقان: 32]

فالقرآن لم ينزل جملة واحدة لأنه خاص بأمة محمد، فالله يطلب من الذين أمنوا مع محمد أن لا يستعجلوا بالسؤال عن كل شيء لأنه حين ينزل القرآن "حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ" (أي يكون قد أكتمل نزوله) ويصبح بين أيديهم كجملة واحدة، ستكون الأمور جلية حينئذ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]

النتيجة: القرآن لم ينزل جملة واحدة ولكنه أكتمل مع إتمام النبي محمد لرسالته (فهو رسالة محلية خاصة بأمة محمد)، والله قد أمر النبي بأن لا يعجل به:

- ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 16-19]

وسنرى لاحقاً (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) كيف يمكن التفريق بين القرآن كما نزل على قلب محمد والقرآن الذي تم تفريقه ليقرأ على الناس على مكث:

- ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 105-106]

ولكن الذّكر كان موجوداً كجملة واحدة من قبل بعثة محمد (فهو عالمياً خاصاً بكل الأمم)، وهذا الجزء من القرآن هو ما تعهد الله بحفظه.

ولكن، توقف يا رجل! ألا تهذي، كيف تفصل بين الذّكر والقرآن؟ وأين هو ذلك الجزء من القرآن الذي تعهد الله بحفظه (الذّكر)؟ وأين ذلك الجزء الذي لم يتعهد الله بحفظه (القرآن)؟

الجواب: لقد فهمنا من آية سابقة أن الهدف من إنزال الذّكر هو تبيان ما نزّل إلى الناس من ربهم، فالذّكر هو ذلك الجزء من القرآن الذي يبين للناس ما نزل إليهم:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

وهناك سياقات كثيرة في كتاب الله قد تدعم زعمنا بأن الذكر هو تبيان (لنقل تجاوزاً) السبب أو الحكمة من وراء أمر شق على الناس فهمه، فعندما لا يفهم الناس السبب وراء أمر ما، فهم بحاجة إلى الذكر الذي يقدم لهم التفسير الإلهي ليبين لهم ذلك الأمر على حقيقته، وهذا بالضبط ما نفهمه من معنى الذكر.

ولكن أين الدليل على هذا القول؟

الجواب: لنبدأ بالآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]

لا أشك أنّ غالبية أبناء المسلمين يعلمون الحادثة التي جاءت هذه الآية الكريمة لتتحدث عنها، إنّها قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي سافر موسى مع فتاه طالباً صحبته، أليس كذلك؟ فلنتفكر بهذه الآية من هذا الجانب: موسى يطلب من الرجل أن يتبعه ليتعلّم منه موسى مما علّمه الله:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

ولكن الرجل لا يتقبل صحبة موسى على الفور، بل شكك بقدرة موسى على الصبر على صحبته:

- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 67-68]

ولما أصر موسى على الرجل طالباً صحبته:

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكهف: 69]

جاء طلب الرجل من موسى على نحو أن لا يسأله عن شي حتى يحدث هو لموسى منه ذكراً:

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]

والآن لنسأل: ما معنى ذكراً في هذه الآية الكريمة؟ ألا تعني أن الرجل يطلب من موسى أن لا يسأله عن سبب قيامه بعمل يعمله حتى يقوم الرجل نفسه بتبيانه لموسى؟ وها هو موسى لا يصبر على ما فعل الرجل، فكلما كان يقوم الرجل بعمل ما، يتعجل موسى للاستفسار عن سببه (أي ذكره)، فيزجر الرجلُ موسى على تسرعه لمعرفة السبب أو العلة (ذكرا).

ويتكرر هذا الزجر ثلاث مرات: عند خرق السفينة، وعند قتل الغلام، وعند بناء الجدار، فكان موسى يطلب في كل مره أن يحدث له الرجلُ من الأمر ذكرا (أي الإحاطة بالأمر خبرا)، ولما لم يصبر موسى على صحبة الرجل، قام الرجل في نهاية الرحلة فأحدث لموسى من تلك الأمور الثلاثة تعليلاً، أي تعليلاً يبين له السبب الذي دفعه للقيام بكل عمل أقدم عليه، أي أصبح موسى يحيط بالأمر خبرا، فخلاصة القول هي أن الرجل قد أحدث لموسى تعليلاً عن ما فعل (لأن موسى لم يكن يعرف السبب من وراء قيام الرجل بذلك – فهو لا يحيط بالأمر خبرا)، أليس كذلك؟ ولكن لا ننسى أن الرجل قد أكّد لموسى بأن ذلك التعليل (أي التفسير) لم يكن من عنده بل من عند ربه الذي علّمه:

- ﴿... وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف: 82]

النتيجة: الذكر هو ما يشبه التأويل ولكنه ليس كأي تأويل، إنه التأويل الرباني للأحداث، فما أقدمه أنا من تفسير لحدث ما هو تأويل، وما تقدمه أنت هو تأويل، وما يقدمه نبي من الله هو تأويل، ولكن التأويل الذي يصدر من عليم خبير هو ذكر وذلك لأنه التأويل الحق الذي لا جدال فيه.

(وسنحاول لاحقاً بحول الله وتوفيقه أن نميز بين الذكر والتأويل بالتفصيل عند التعرض لقصة موسى مع صاحبه، لذا فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً)

دليل آخر

وها هم نفر من يهود (ومعهم بعض المشركين) يطلبوا من محمد أن يخبرهم عن ذاك الرجل الذي آتاه الله من كل شيء سبباً، فيأتي الرد الإلهي على هذا النحو:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: 83]

فما معنى أن يتلو عليهم منه ذكرا؟ لقد شرح الله لهم بالتفصيل اللازم دون زيادة لا تفيد أو نقصان يضر قصة ذلك الرجل، فما جاء بعد هذه الآية الكريمة كان تفسيراً (أو لنقل توضيحاً) لخبر ذلك الرجل الذي كان قد أقلقهم خبره، ولكنه ليس كأي تفصيل بل هو التفصيل الحق الذي لا جدال فيه.

فمفردة الذكر تعني – في فهمنا لاستخداماتها القرآنية- توضيح أو تفصيل الحادثة، فنص الحادثة نفسها هو قرآن، ولكن العلة أو السبب من ذلك هو ذكر. فحد السرقة هو قطع اليد، ولكن السبب من وراء ذلك هو ذكر، وصوم رمضان هو تكليف قرآني ولكن السبب من وراءه هو ذكر، والزواج بأكثر من امرأة واحدة هو خبر قرآني، ولكن السبب من وراء ذلك هو ذكر، وهكذا.

وربما لهذا، فإن السبب الذي يفسر حدث إلهي لا يمكن أن يختلف من أمة إلى أمة، فهو موجود عند الله في السجل الأول لا يمكن أن يختلف من ديانة إلى آخر، فالتأويل الرباني لتعدد الزوجات لا يمكن أن يكون شيئا في شريعة محمد وشيئا آخر في شريعة موسى، وهكذا الأمر بالنسبة لكل تكليف أو أمر رباني.

ولا يظنن أحد بأننا نقصد أن الذكر هو جزء من حرفية الكلام موجودة في القرآن، فالنص كله قرآن، ولكن الحكمة الصحيحة (أو السبب الحقيقي أو التأويل الرباني الذي لا جدال فيه) الذي يجب أن تستنبط من كل السياقات القرآنية لتعليل (أو لإيجاد السبب الحقيقي) أمر ما هو الذكر.

وبهذا الفهم ربما نستطيع تسليط الضوء على آية عظيمة في كتاب الله قلّ ما يستطيع تفصيلها (انظر تأويلات من سبقونا أولاً)، وهي قوله تعالى أكثر من مرة في السورة نفسها:

- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 17]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر: 22]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾ [القمر: 32]
- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾ [القمر: 40]

فكيف يمكن أن نفهم أن الله قد يسّر القرآن للذكر في الوقت الذي ما انفك علماء الإسلام يروجون لمقولتهم أن القرآن هو الذكر نفسه؟ فإن كان القرآن هو الذكر فكيف بالله يقول وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ؟ أفهمونا ولكم من الله الأجر!

رأينا: إننا نؤمن إيماناً يقينياً أن القرآن هو كل ما أنزل على محمد من ربه من أول حرف إلى آخر حرف بلا زيادة أو نقصان، ولكننا نؤمن كذلك –كما ترشدنا الآيات السابقة- أن الله قد يسر هذا القرآن للذكر، فكيف يكون ذلك؟

الجواب: إن السبب الحقيقي الذي يعلل حدث أو تكليف أو أمر رباني في كتابه الكريم موجود في الكتاب من بدايته حتى نهايته، فالقرآن الكريم كتلة واحدة لا يؤخذ بعضها ويترك بعضها الآخر (COHERENT WHOLE باللسان الأعجمي)، وهو يفسر بعضه البعض، فقد يفسر خبر قرآني ورد في سورة البقرة ما جاء في آل عمران والنساء والبروج، وهكذا. والله يخبرنا بأن هذا التفسير (التأويل الرباني لكل شيء) موجود في كتابه لأن الله قد يسره للذكر، وما دام أن الله قد يسره، فهو سهل بسيط يخلو من التعقيد واللّف والدوران، فهو بسيط لا يصعب على الناس فهمه، ولا يحتاج إلى كثير عناء لترويجه، فهو يروج نفسه بنفسه. وأين الدليل على ذلك؟

لقد جاء معنى التيسير في أكثر من موضع في كتاب الله:

- ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة: 185]
- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا

ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

- ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾ [البقرة: 280]
- ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ [الكهف: 88]
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [مريم: 97]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 25-27]
- ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق: 4]
- ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق: 7]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]
- ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: 19-21]
- ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾ [الأعلى: 7-9]
- ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح: 5-6]

إن جميع هذه السياقات القرآنية تدلنا أن التيسير يدل على السهولة والتوافر، فما هو ميسر فهو سهل المنال، ولكن لا يظنن أحد بأنه لا يحتاج إل جهد، فالله يريد بنا اليسر في صيامنا شهر رمضان، ولكن هل يأتي ذلك بدون جهد؟

- ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ

ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: 185]

كذلك هو – في ظننا- الذكر من القرآن، هو سهل يسير على من بذل جهداً للوصول إليه، ويصبح سهلاً يسيراً على الفهم عندما يبين. فالمطلوب منا هو البحث عن ذلك الذكر (الحكمة الربانية) في كتاب الله نفسه لأنها متوافرة فيه، فإنٍ نحن أردنا أن نفهم سبب تعدد الزوجات فنحن إذاً نحتاج إلى الذكر لتعدد الزوجات، فذاك –لا شك- موجود في كتاب الله، وتحتاج إلى جهد للوصول إليها، وإنْ نحن سألنا عن الذكر في حد الزنا، فذاك في كتاب الله سهل يسير، وهكذا. ولكن ما أن يبين ذلك الذكر (أي العلة الصحيحة من كتاب الله) حتى يكتشف الناس كم هي سهلة ميسرة، فيتقبله الناس بكل سهوله ويتركون ما عداه حتى لو كان ذلك من بنات أفكار أكثر أهل الأرض معرفة.

ومما لا شك فيه أن الذكر (أي التأويل الرباني وليس تأويلات البشر وتخريفاتهم) هو فقط ما يلجم الناس جميعاً، فمهما تحدث الناس عن الحكمة من تعدد الزوجات دون دليل على زعمهم من كتاب الله نفسه بقي قولهم محل شك لدى الكثيرين، ولكن سيقتنع الجميع بذلك التعليل إن كان هو الذكر (أي السبب الرباني الحقيقي)، إي إن كان هو ما اختطه الله حقاً في كتابه الكريم، لأنه يكون بذلك هو الذكر بعينه.

فتعليل الله مقنع للجميع (حتى وإن لم يقبلوا به) لأنه يقيم الحجة عليهم، وتعليل البشر يخصهم أنفسهم ولا يلزم الناس قبوله.

ولكن من الذي يستطيع الوصول إلى الذّكر من القرآن؟

تتحدث الآية الكريمة نفسها أن الذي يستطيع أن يصل إلى الذّكر من القرآن (وإن كان يسيرا) يجب أن يكون مدّكرا، فالله يبحث عن المدّكر الذي يستطيع القيام بذلك، ولنقرأ الآية مرة أخرى لنرى حقيقة هذا الزعم:

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ [القمر: 17]

(دعاء: اللهم آمين آمين آمين، اللهم تقبلني في المدّكرين، واجعلني من أهل الذكر، واجعلني لأهل الذكر إماماً)

فما معنى المدّكر؟ أو من هو المدّكر (بالدال وليس بالذال)؟

رأينا: المدّكر هو الذي يتذكر فيصل إلى المعلومة الصحيحة بسرعة شديدة بسبب حدث آخر ذكّره بها.

وأين الدليل (أو الذّكر: التعليل الصحيح من كتاب الله) على ذلك؟

لا شك أن هناك علاقة بين التذكّر والتدكّر (إن صح القول)، فهناك المذّكر (بالذال):

- ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١﴾ [الغاشية: 21]

وهناك المدّكر (بالدال):

- ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١﴾ [القمر: 51]

ولكن ما الفرق بينهما؟

جواب: يكمن الفرق – في ظننا- في أن الذي يتذكر لا شك يبذل جهداً حتى يستطيع استرجاع معلومة قديمة، وقد يستغرق وقتاً طويلاً في تذكرها، وقد لا يكون أضاع تلك المعلومة من قبل ولكنه فقط نسيها:

- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: 29]
- ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ [النازعات: 35]
- ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٢٣﴾ [الفجر: 23]

ولكن الذي يتدّكر (بالدال) يكون قد نسي المعلومة لأنها أضاعها، وهو بحاجة أن يسترجعها، ولكن حتى يتم له ذلك (أي استرجاع المعلومة الموجودة سابقاً)، لا بد أن تحصل حادثة أخرى لتذكّره بتلك المعلومة القديمة، فيحصل عنده التدكّر (بالدال) كتذكر جاء فجاءة وبسرعة بسبب مثير لها، وقد يرد البعض بالقول: وأين الدليل على مثل هذا القول؟

رأينا: ذلك موجود في كتاب الله في قصة يوسف، ف لعلّنا لم ننسى بعد ما قال يوسف للرجل الذي فسّر له الحلم وهما في السجن وظنّ الرجل أنّه ناج:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

فيوسف يطلب من الرجل أن يذكر خبره عند ربه (الملك):

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ... ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

فيُنسي الشيطانُ الرجلَ خبرَ يوسف كليّاً، فلا يذكره عند ربه سنين من الزمن:

- ﴿... فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

ويحدث أن يرى الملك نفسه حلماً يصعب على كل من حوله أن يفسره له، ويأتي هذا الخبر كالصاعقة على ذلك الرجل فيتذكر أمر يوسف الذي صاحبه في السجن وقد برع في تفسير الرؤيا له ولكل من صاحبه السجن:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ [يوسف: 45]

ولو دققنا جيداً في اللفظ فإننا نجد أن الله يصور ذلك المشهد على أنه إدّكار (إن صح القول) وليس تذكر، فالرجل لم يتذكر ولكنه ادّكر :

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ .... ٤٥﴾ [يوسف: 45]

إن هذه الآية الكريمة تدلنا على أنّ الادّكار هو تذكر خبر كان موجودا سابقاً تم نسيانه بالكلّية- ولكن يجب التأكيد على أن النسيان لا يعني أن الأمر قد ذهب من التفكير بدليل:

- ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ [الكهف: 24]

وسنتعرض لمعنى مفردة النسيان لاحقاً بحول الله وتوفيقه- فجاءت حادثة أخرى (مثير أو stimulus باللسان الأعجمي) جعلت الشخص الذي نسيها يتذكر ذلك الحدث مرة واحدة، فيصبح ذلك ادّكارا وليس تذكراً.

والآن لنعود إلى الآية التي انطلقنا منها في البداية متسلحين بهذا الفهم لنجد أن تفسيرها –في نظرنا- يصبح غاية في البساطة والسهولة:

- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 17]

فالله قد يسر القرآن (أي جعله سهلاً) للذكر (لتبيان السبب الحقيقي وإيجاد التأويل الرباني لكل شيء)، ولكن لا يستطيع القيام بذلك إلا من ادكر (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)، فالذي يبحث عن الذكر في القرآن لن يجده إلا فجأة وبشكل سريع بسبب حدث آخر يذكرك فيه.

مثال

عندما تقرأ قول الحق مثلاً:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: 28]

وترى أن الله يفصل بين الناس والدواب والأنعام على أنها كينونات ثلاثة مختلفة (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ)، يجد لزاماً من أراد أن يدّكر (بالدال) أن هذا الفصل الرباني بين الدواب والأنعام يذكّره على الفور بأمر قلما يدرك أهميته كثير من الناس (على سهولته)، وهو ما جاء في قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]

ليرى بأم عينه ذكراً إلهياً (أي تفصيلاً صحيحاً) لأمر أشكل على الناس كثيراً مفاده السؤال التالي: لماذا نأكل هذا ولا نأكل ذاك (مما يسميه الناس تجاوزاً أو تحريفاً الحيوانات فهذه ليست حيوانات (كما يرغب الناس أن يسموها) وإنما هي بهائم، ونحن نتحدى أن يجد أحد مفردة الحيوانات مستخدمة في كتاب الله. فالأنعام والدواب معاً هي بهائم، والله قد أحل لنا بهيمة الأنعام ولكنه لم يحل لنا بهيمة الدواب.)؟ لماذا نأكل البقر ولا نأكل الحمير مثلاً؟ وما أن تدقق جيداً بالآية الكريمة حتى تجد الذّكر (أي التفسير الحقيقي) يتمثل في أنّ الله قد أحل لنا أكل الأنعام "أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ"، (ولكنه لم يحل لنا أكل الدواب)، فيثور بذلك التساؤل التالي: لماذا أحل الله لنا أكل الأنعام ولم يحل لنا أكل البهائم؟ وهنا يجد من أراد أن يدّكر نفسه أمام معلومة تستحق المتابعة والبحث والتفصيل، فيكمل رحلته في البحث عن الذكر (السبب الحقيقي الذي اختطه الله بنفسه وليس ما يظنه الناس أنه السبب الحقيقي من عند أنفسهم) فلا يفوته قول الحق في موضع آخر من كتابه:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]

فالأنعام قد خلقها الله (ومن عنده من ملائكته الذين لا يعصونه ما أمرهم) بأيديهم، فكل ما فيها يصبح صالحاً للاستخدام. ولو تقدمنا أكثر في البحث عن الذكر (السبب الحقيقي) عن ذلك، لوجدنا الحق يقول:

- ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44]

فنحن نذبح الأنعام لنأكلها لأن الأنعام لا تعقل ولا ترى ولا تسمع حتى لو كان لها قلوب وعيون وآذان.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان تحريم لحم الخنزير)

والأمثلة على مثل هذا الاستنباط وافرة في كتاب الله، ولكن ما يهمنا هنا هو الزعم:

⇐ أن الاستنباط إن كان صحيحاً فيجب أن يكون بسيطا لا يدعو إلى عناء كبير لفهمه، يستطيع فهمه أكثر أهل العلم تخصصاً وأقلهم معرفة بالشريعة وذلك لأنه يحاكي أمر حياتهم، فهو الحجة الدامغة

التي لا يستطيع كل مؤمن بهذا الكتاب أن يرفضها وذلك مصداقاً لقوله تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ).

⇐ إن من لديه القدرة على استنباط الذكر من القرآن يجب أن تكون لديه القدرة على ربط الأحداث بعضها مع بعض، فهو - بكلمات القرآن - يجب أن يكون مدّكرا، فالله ينادي تلك الفئة من الناس على وجه التحديد للقيام بهذا المهمة:(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ).

دعاء: اللهم رب تقبلني في المدكرين

⇐ إن مفردة الذّكر متعلقة بمفردات أخرى تتشابه معها في اللفظ، وتتشابك معها في المعاني، نذكر منها على سبيل المثال مفردات مثل يذكر ويتذكر ويذّكر، وهكذا، وهنا نجد لزاماً الوقوف عندها لتبيان بعض جوانب التشابه والاختلاف، علّنا نستطيع – بحول الله- الخروج ببعض الاستنباطات عن مفردة الذّكر التي نحاول التعرض لجوانبها الكثيرة في هذا الجزء من البحث.

يَذْكُرُونَ (بتسكين الذال)

وردت هذه المفردة ومشتقاتها في كتاب الله كثيراً لتدلنا على معنى نقل الخبر أو حتى طرحه أمام الناس:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: 40]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١٤﴾ [البقرة: 114]
- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾ [البقرة: 198]
- ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣٨﴾ [الأنعام: 138]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥﴾ [يوسف: 45]

والأمثلة على مثل هذا المعنى وافرة في كتاب الله

يَتَذَكَّرُونَ (بفتح الذال)

جاءت هذه المفردة ومشتقاتها لتدل على تذكر ما كان قد وقع سابقاً:

- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة: 221]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]
- ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ [الأنعام: 80]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم: 5]

يَذَّكَّرُون (بتشديد الذال)

وردت هذه المفردة ومشتقاتها لتدل على معنى ثالث غير المعنيين السابقين، فلنتدبر الآيات أولا ثم ننطلق للتعليق عليها، لأننا نظن أن هذه هي المفردة المتعلقة بالذّكر، مدار البحث هنا:

- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ [آل عمران: 7]

- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: 126]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: 26]
- ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]
- ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: 57]
- ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126]
- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: 52]
- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: 6]
- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: 13]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: 41]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: 50]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: 62]
- ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: 10]

مما لا شك فيه – عندنا- أن هذا الاستخدام للمفردة لا تعني سرد المعلومة أو الخبر (بمني يذْكر)، ولا باسترجاع المعلومة من النسيان (بمعنى يتذَكر)، ولكن بمعنى ثالث يتعلق بـ بتدبر المعلومة (يذّكر- تشديد الذال)، فما الفرق بين هذه الألفاظ الثلاث التي وردت جميعها في كتاب الله، ونعيدها هنا مع مثال واحد من كتاب الله على كل واحدة منها:

<u>يَذۡكُرُونَ</u>

- ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: 138]

<u>يَتَذَكَّرُونَ</u>

- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ

ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: 221]

يَذَّكَّرُونَ

- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: 126]

إن ما يهمنا القول هو أن مفردة الذّكر التي نتصدى لتبيان بعض معانيها تتعلق بالمفردة الثالثة **يَذَّكَّرُونَ**، التي تدعو إلى التدبر بالبحث عن الذكر من كتاب الله نفسه، الأمر الذي يشجعنا على سرد كل السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه المفردة لتسعفنا – بحول الله- لتسليط الضوء على معناها:

- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7]
- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: 126]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: 26]
- ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]
- ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: 57]
- ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126]
- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: 52]
- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: 6]
- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: 13]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: 41]

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: 50]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: 62]
- ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: 10]

فالسياقات القرآنية التي ترد فيها مفردة تذّكر (بتشديد الذال) تدعو جميعها إلى التدبر، ولا شك أنها تشكل في مجملها لغزاً (كما يحب البعض أن يسميه) يحيّر الناس منذ الأزل، فمن أراد أن يحل مثل هذه الألغاز (إن صح القول)، فلابد أن يذّكر، إلا أن الله قد قصر هذه النعمة على فئة محددة من الناس وهم أولي الألباب: وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

فليس كل شخص قادر على أن يذّكر بالرغم من أن الله قد يسر القرآن للذّكر. لكن كل شخص قادر على استيعاب الذّكر متى ما انكشف بكل يسر وسهوله.

دعاء: اللهم رب أسألك أن أكون من أولي الألباب الذين يذّكرون

والأكثر غرابة أن ردة الفعل على الوصول إلى الذّكر قد لا تكون طبيعية عند الغالبية العظمى من الناس، فقد ينعتوا من يقوم بذلك بالجنون، فإذا ما قال رشيد الجراح – مثلاً- على ملأ من الناس (خاصة في قاعة الدرس) أن النساء ليسوا من الناس، رأيت الكثيرين ينظرون إليه بعين السخرية والتندر ظانين أنه يسخر من النساء أو أنه يقول ذلك ليثير الضحك والمرح في قاعة الدرس، ولكنّه عندما يفاجئهم بطلب إمعان التفكّر والتدبّر في قول الحق:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: 14]

ويسألهم كيف يمكن أن تكون النساء من الناس والله يقول أن النساء شهوة للناس (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ)، رأيت الوجوم يخيم على المكان، ورأيت الدهشة في أعينهم وقد سكتت ألسنتهم كأن على رؤوسهم الطير، وبكأنهم يقرؤون هذه الآية الكريمة على بساطتها وسهولة فكرتها للمرة الأولى في حياتهم.

والأكثر غرابة أن مثل هذه التذّكرات (إن صح القول) تزيد كثيرا من الناس طغياناً وإعراضاً، فهذا نفر غير قليل منهم يرد بالقول (بعد أن رأى الذّكر بأم عينه) وبعد هول الصدمة ليجادل: كيف لا تكون

النساء من الناس؟ وكيف بالله يعتبر النساء متاعاً للحياة الدنيا كما الأنعام أو الخيل المسومة أو الحرث؟ فيأخذهم مثل هذا الذّكر (السبب الحقيقي) إلى الطغيان بدل الهداية مصداقاً لقول الحق:

- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ۝٤١﴾ [الإسراء: 41]

فهم قد غفلوا أن سؤالهم هذا يجب أن يدفعهم إلى البحث عن الذكر فيه، فلا شك أن لكل سؤال يثار ذكر إلهي (أي تبرير إلهي) يبين ماهيته، فبدل أن يعمل هؤلاء الناس فكرهم في البحث عن الذكر، تأخذهم العزة بالإثم فيكون جل همهم المجادلة وليس المعرفة، فنقول: لا هدى الله من كان الجدال هو أكثر همه.

لكن تجد – بالمقابل- قليل من الناس يفرح بمثل هذا الذّكر، ويكأنّه قد وجد ضالته التي كان على الدوام يبحث عنها، لا بل ويطالب بالمزيد من مثل ذلك، فهو يتلقاها كما تتلقى الأرض العطشى ماء السماء.

فنقول: نسأل الله الذّكر لمن أراد العلم وتبيان الحق.

وللحديث بقية